خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة

تأليف

د. عبدالعزيز بن صالح بن عبدالعزيز العمَّار

د. عبدالعزيز بن صالح بن عبدالعزيز العمَّار

- أستاذ مشارك في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
- حصل على درجة الماجستير في البلاغة القرآنية من قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحته (حديث القرآن عن القرآن: دراسة بلاغية تحليلية)
- حصل على درجة الدكتوراه في البلاغة النبوية من قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحته (الاستفهام في الصحيحين: خصائصه التركيبية، ومعانيه البلاغية).
- مدير تحرير مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

المقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وكماله، حمداً له وشكرا بأن أنعم علينا بالقرآن والإيمان، وجعلنا من المسلمين، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه الكرام، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

فجاء اختياري لموضوع **" خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة"**؛ لأهميته، وجليل شأنه في الدراسات القرآنية، فلا يخفى مكانة المكي والمدني لدى علماء علوم القرآن والمهتمين به، فقد حظي بالعناية الفائقة، والرعاية الخاصة به قديماً وحديثاً، وقد أخذ حقه ونال حظه في الدراسات القرآنية كاملا غير منقوص، فقلَّ أن تجد كتاباً يبحث في علوم القرآن إلاَّ وتجد فيه مساحة واسعة في الحديث عنه، والإشارة إليه، والإشادة به، وبيان منزلته وثمرته، وبيان عناية العلماء به.

ولن أتحدث في هذا البحث عن خصائص الآيات المكية على وجه العموم، كما أنه لن يكون حديثاً نظرياً، ولكني سأقيد هذه الدراسة بسورة " القارعة"، ومن هنا جاء هذا البحث بعنوان: **" خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة"**، وهذا ما يميز هذه الدراسة، ويعطيها شيئاً من الخصوصية والتميز، وسأنطلق في بيان هذه الخصائص من السورة نفسها من خلال بيان خصائصها الأسلوبية، والأسرار البلاغية التي تم توظيفها في مخاطبة هؤلاء الأقوام الذين تنزلت عليهم هذه السورة، مبيناً ما استطعت مدى توافق هذه الخصائص مع حال أولئك القوم، مبيناً في الوقت نفسه الأسرار

البلاغية في توافر هذه الخصائص في العهد المكي، والأهداف التي جاءت لتحقيقها، والأغراض المراد بيانها وتقريرها.

ومن هنا تتجلى أهمية هذه الدراسة؛ في كونها دراسة تطبيقية، وهذه هي الإفادة الكاملة في نظري من جهود علمائنا في هذا المجال، وتوظيف مبحث المكي والمدني في مثل هذه الدراسات، وقد دعا بعض العلماء إلى مثل هذه الدراسات، وحثوا عليها، وسيأتي حديث عن هذا الأمر في أثناء هذه الدراسة، ولكني أكتفي هنا بما ذكره الدكتور السيد عبدالمقصود جعفر – وهو ممن عُني بالجانب التطبيقي في هذا المجال – يقول:« إن معظم هذه العلوم لا يزال بحاجة إلى وقفات أطول، تتناول كلا منها على حدة، لتراجع أولا جهود أسلافنا في دراسته، سواء من حيث قواعدهم ومنطلقاتهم العلمية في هذه الدراسة، أو من حيث الثمار النهائية التي توصلوا إليها بالفعل، ثم تكون المرحلة التالية – بل الطبيعية – هي الإضافة إلى هذه الجهود، نعم إن مرحلة الإضافة هذه طبيعية وتلقائية تماماً إذا صدق الدارس في مراجعته، وبذل لها الجهد المطلوب قدر إمكانه » . [١]

ثم يؤكد هذه القضية مرة أخرى ويعيدها في قوله:« وبعبارة أوضح فإنهم أعطوا أهمية كبيرة في هذه المباحث للمرويات والآراء الخاصة بتحديد ما هو مكي، وما هو مدني من السور والآيات، دون أن يعطوا الأهمية

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين: المكي والمدني: ٥، للدكتور السيد عبدالمقصود جعفر.

نفسها لدراسة خصائص النص القرآني – موضوعياً وأسلوبياً – على ضوء اختلاف الظروف والتطورات بين هذين العهدين، وكل ما ورد عنهم في ذلك قد جاء في نطاق ضيق لا يتجاوز سطورا معدودة تحت عنوان "علامات"، أو "ضوابط"، أي العلامات أو الضوابط المميزة لكل من السور المكية، والسور المدنية» . [1]

ولا تخفى أهمية هذا الموضوع، فقد ذكر العلماء أهمية هذا العلم وثمرته، والمؤلفات فيه، ولكني هنا سأذكر فائدته المرتبطة بمثل هذه الدراسة البلاغية وعلاقتها به، ومن أهم ما يهمنا من هذه الفوائد: أن معرفة المكي والمدني تجعلنا ندرك الفروق الأسلوبية، والخصائص الموضوعية والتعبيرية للقرآن الكريم، ومن ثَم الإفادة من هذا البحث في الدعوة إلى الله؛ وذلك أنه يُعطي الدارس المنهج في طريقة التعامل مع الناس على اختلاف أجناسهم، وتعدد مشاربهم وتنوعها؛ وذلك أن لكل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية موضوعاتها الخاصة بها، وأساليب الخطاب التي تتميز فيها، كما يُعطينا هذا البحث دلالة مباشرة على أن لكل مقام مقالاً، فلكل قوم ما يخصهم من الخطاب، ومن ثَم يأتي الخطاب في كل الظروف والأحوال متلائماً مع مقتضيات الأحوال، مراعياً لها، وهل البلاغة إلاَّ هذه؟! . [2]

ولذا فهو يساعدنا على تذوق أساليب القرآن الكريم، وإدراك

(١) المصدر السابق: ٦

(٢) انظر : مباحث في علوم القرآن : ٥٩، للدكتور :مناع القطان .

الفروقات الدقيقة بينها، كيف لا؟! ونحن نعلم أن مراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وعليها تقوم .[١]

ومن أهمية هذا الموضوع: أنه يوقفنا على دلالات مهمة، وإشارات بالغة لفهم النص القرآني؛ وذلك من خلال معرفة الأجواء التي تنزل فيها، والوقوف على أحوال المخاطبين بهذا النص، والأجواء المحيطة به، وفي هذا استيفاء لمعاني النص القرآني، واستقصاء لدلالاته و مدلولاته، وكشف عن أسراره، وما يحيط به[٢]

وسيتجلى هذا - بإذن الله – في هذه الدراسة من خلال الوقوف مع خصائص الخطاب المكي في سورة " القارعة"؛ لتوافر كثير من الأسرار البلاغية في هذه السورة، فشكَّلتْ ظاهرة أسلوبية، كما تميزت بكثير من الخصائص الأسلوبية والتعبيرية، فأردتُ الوقوف معها؛ لبيان السرِّ في توافرها، وبيان مدى ملاءمتها للقوم الذين خُوطبوا بها، وللأجواء التي تنزلت فيها، وبيان أنها جاءت وفاءً لمقام البلاغة، وتطلباً لأحوال القوم في العهد المكي.

كما أن سورة " القارعة" من أواسط السور التي نزلت في العهد المكي[٣]، فجاءت محمَّلة بكثير من خصائصه الأسلوبية والموضوعية، ولذا نجد فيها الألفاظ القوية المجلجلة، والأساليب الدالة على الوعيد

---

(١) انظر : مباحث في علوم القرآن : ٥٩، و: تأملات قرآنية بحث منهجي في علوم القرآن الكريم: ٤٣، للدكتور موسى بن إبراهيم الإبراهيم

(٢) انظر : دراسات في علوم القرآن الكريم : ١٣٧، د. فهد الرومي .

(٣) انظر : البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٩٣، لبرهان الدين الزركشي.

والتهديد، كالاستفهام بدلالاته المتعددة، كما توافر فيها أسلوب التكرار، فضلاً عن اللغة التصويرية القائمة على الأساليب البيانية، والفنون البديعية، كما سيتضح ذلك من خلال هذه الدراسة.

جاءت هذه الدراسة في مقدمة، ذكرتُ فيها: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومبحثين: المبحث الأول: بعنوان: وقفات تأملية مع مبحث المكي والمدني، ذكرتُ فيه خمس وقفات متعلقة بموضوع الدراسة، كانت توطئة للمبحث الثاني، الذي كان بعنوان: خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة، ثم كانت خاتمة البحث ذكرتُ فيها أبرز النتائج التي تم الوصول إليها، والخروج بها من خلال هذا البحث، وبعض التوصيات المتعلقة بهذه الدراسة، ثم ذيلتُ ذلك بفهارس المصادر والمراجع

وبعد: فهذا ما سأسعى إلى تحقيقه والوصول إليه، فإنْ تم ذلك على الوجه الذي أريد فقد حققتُ مرادي، وأصبتُ مبتغاي، وذلك تكرم منه – سبحانه – وتفضل، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلتُ وحاولت، وإنْ لم أبلغ الكمال فحسبي – أيضاً – أني سعيتُ له واجتهدت، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول: وقفات تأملية مع مبحث المكي والمدني

الوقفة الأولى: تعريف المكي:

يحسن قبل البدء في الحديث عن خصائص العهد المكي، أن أبيِّن المراد بالمكي في هذه الدراسة، مع أني لستُ معنياً في هذا البحث أن أستقصي الأقوال في هذه المسألة، ولكني سأشير إلى أبرز ما قيل في ذلك وأرجحها، فقد تعددت أقوال العلماء وتنوعت في بيان المراد بالآيات المكية، وتنوعت أقوال العلماء في ذلك، بيد أن أجمع هذه الأقوال، وأكثرها ضبطاً وتحديداً، بل هو المشهور والراجح لدى كثير من العلماء المشتغلين في علوم القرآن قديماً وحديثاً: أن المكي ما نزل قبل الهجرة، سواء كان في مكة أو خارجها، قريباً منها أو بعيداً عنها، بخلاف المدني، فهو ما نزل بعد الهجرة، سواء كان في المدينة أو خارجها، قريباً منها أو بعيدا عنها كذلك، حتى وإن كان في مكة.[1]

وحين نتأمل في هذا التعريف نجد أنه منبثق من زمن النزول، فما كان قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعدها فهو مدني، وهو ضابط دقيق يشمل آيات القرآن الكريم كلها، وقد كانت هجرة المصطفى ﷺ هي الأساس والفيصل في هذه المسألة، ولا غرو في هذا؛ فإن الهجرة النبوية هي الحد الفاصل، ونقطة التحول في تأريخ الدعوة الإسلامية، فهي كذلك الفيصل في تحديد المكي والمدني، وليس ثمة حدث أولى وأكبر من هجرته ﷺ للتفريق

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٨٩ .

بين هذين العهدين، فبعد الهجرة تميَّز ما نزل من القرآن عما قبله تميُّزاً واضحاً جليا، وأصبح لكل من العهدين خصائصه الخاصة به الموضوعية والأسلوبية. (١)

الوقفة الثانية: جهود العلماء في المكي والمدني:

إن الناظر في كتب القرآن قديماً وحديثاً يجد أن الحديث فيها عن المكي والمدني قد أخذ مساحة واسعة من اهتمام العلماء به، فقد عُني العلماء به((عناية فائقة فتتبعوا القرآن آية آية، وسورة سورة؛ لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان، والمكان، والخطاب، لا يكتفون بزمن النزول، ولا بمكانه، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب)) . (٢)

وإن هذا الاهتمام جزء من الاهتمام بالقرآن الكريم كله، كما أن ذلك إشارة إلى عِظم مكانة القرآن، وعلو منزلته، كما أنه دليل على حفظ الله لكتابه، بأن قيض له من يحفظه، ويعتني به، ويرد عنه كل شبهة ونقيصة، ويحميه من كل شائبة تلحق به من نقص أو زيادة، أو تحريف. (٣)

ولم يكن هذا الاهتمام وليد اللحظة، أو متطلباً من متطلبات هذا العصر، فقد بدأت بداياته مع بداية نزول القرآن الكريم، ومن الجهود

---

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن: ٥٦، عبدالقهار العاني، و: المكي و المدني: ١٤، د. محمد عبدالرحمن الشايع.

(٢) مباحث في علوم القرآن: ٥٩ .

(٣) انظر: إتقان البرهان في علوم القرآن:: ١/ ٣٦٩، للدكتور فضل حسن عباس .

المبكرة في هذا المجال: موقف الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود ﷺ يدل على ذلك قوله : « والله الذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورة من كتاب الله، إلا وأنا أعلم أين أُنزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أُنزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه». [١]

ولذا فلا أقل من الإشارة إلى هذا العمل، وإلى ذلك الجهد الكبير الذي بذله أسلافنا، كيف لا؟! وهو « جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحي في جميع مراحله، ويتناول آيات القرآن الكريم، فيعين وقت نزولها، ويحدد مكانها، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها، أهو من قبيل المكي أم من قبيل المدني؟ مستعيناً بموضوع السورة أو الآية، أهو من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية في مكة؟ أم من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة في المدينة؟». [٢]

ولا غرو في ذلك فقد نال هذا العلم من أسلافنا على اختلاف تخصصاتهم، وتعدد مشاربهم« عناية طيبة، تذكرنا بجهدهم العظيم الذي بذلوا فيه أقصى ما وسعهم للتفقه في كتاب الله، وتتبع كل ما يعين على تفسيره، والدفاع عنه، وإظهار إعجازه» . [٣]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب رسول الله ﷺ ، برقم: ٥٠٠٢، ومسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبدالله بن مسعود وأمه – رضي الله عنهما –، برقم: ٢٤٦٣ .

(٢) مباحث في علوم القرآن: ٥٣ .

(٣) المثاني القرآنية دراسة في مفهوم التكرار وأسراره في القرآن: ٣٧، للدكتور السيد =

ومن يقف عند مبحث المكي والمدني في القرآن الكريم يدرك الجهد العظيم الذي بذله علماؤنا في هذا المجال، وإنه لعمل جبار، وجهد عظيم، فقد« استقرأ العلماء السور المكية، والسور المدنية، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكي والمدني تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التي تناولتها، وخرجوا من ذلك بقواعد ومميزات، فذكروا ضوابط المكي، ومميزاته الموضوعية، وكذلك المدني » . [١]

وإنه لجهد عظيم يعكس قيمة هذا الكتاب المنزَّل، كما يعكس كذلك مكانة هذا القرآن في نفوس أتباعه، ومكانته لدى علماء الأمة قديماً وحديثاً، كيف لا وهو كلام رب العالمين؟

كما أن لهذا الاهتمام غايات عظمى، ومقاصد جليلة، وإن استهان به من استهان، أو خفيت عليهم حكمه وغاياته، وقد ذكر هذه الحقيقة وأكدها الدكتور بكري شيخ أمين في قوله:« هذا الاستقصاء في تحري أماكن نزول الآيات، ومعرفة أسباب نزولها قد يبدو لبعض الغافلين أنه أمر غير ذي بال، ولكنه في نفوس الرواة والعلماء يعني صدق الرواية، وإحاطة القرآن بسياج من العناية لم يظفر بأقل منها أي كتاب آخر في هذه الوجود في مشارق الأرض ومغاربها، منذ أن خُطَّ أول سطر في هذه الحياة إلى يومنا هذا» . [٢]

= عبدالمقصود جعفر .

(١) مباحث في علوم القرآن: ٦٣ .

(٢) التعبير الفني في القرآن: ٤٥ .

ولا عجب في هذه العناية، ولا في ذلك الاهتمام فإن أمم الأرض قاطبة تولي وبشكل كبير« اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكري، ومقومات حضارتها، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السبق في عنايتها بتراث الرسالة المحمدية التي شرفت بها الإنسانية جمعاء » . [1]

الوقفة الثالثة : نزول القرآن منجما :

من المعلوم أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة على رسول الله ﷺ، بل نزل مفرَّقاً منجماً على امتداد بعثته كلها، لحكمة شاءها مَن تكلم بهذا القرآن الكريم وأنزله – سبحانه وتعالى –، وقد أشار – سبحانه – إلى بعض هذه الحكم في قوله – تعالى – في معرض رده على كفار قريش في كون القرآن لم ينزل جملة واحدة، يقول : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾[2]، فقد امتد نزول القرآن الكريم ثلاثاً وعشرين سنة، مدة نبوته – عليه الصلاة والسلام –، فقد عاش في مكة بعد بعثته ثلاث عشرة سنة، وقضى بالمدينة عشر سنين، بعد أن هاجر إليها، إلى أن لحق بربه في الرفيق الأعلى ﷺ

وبهذه الطريقة نزل القرآن، وبهذه الطريقة « قضت حكمة الله أن يظل الوحي متجاوباً مع الرسول ﷺ يعلمه كل يوم شيئاً جديداً، ويرشده ويهديه، ويثبته ويزيده اطمئناناً، ومتجاوباً مع الصحابة – رضوان الله

---

(١) مباحث في علوم القرآن: ٥١ .

(٢) الفرقان: ٣٢ .

عليهم – ويربيهم، ويصلح عاداتهم، ويجيب عن وقائعهم، ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته، فكان مظهر هذا التجاوب نزوله منجماً مفرقاً بحسب الحاجة، خمس آيات، وعشر آيات، وأكثر، وأقل، على هذا المنوال ظل القرآن ينزل نجوماً؛ ليقرأه النبي ﷺعلى مكث، ويقرأه الصحابة – رضوان الله عليهم – شيئاً بعد شيء، يتدرج مع الأحداث والوقائع، والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسولﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاما ». [(١)]

وكان القرآن ينزل في هاتين المرحلتين على حسب الوقائع والحوادث، وعلى جميع الأحوال والظروف التي كان عليها رسول اللهﷺ، ووفقاً لمتطلبات الدعوة في كل من مكة والمدينة، فقد نزل في الأمصار والقرى، كما نزل في الجبال والوهاد، وفي أجزاء من الليل والنهار، كما نزل كذلك في السفر والحضر. [(٢)]

ونظراً إلى هذا الاختلاف، وتعدد هاتين المرحلتين جاء الاختلاف في خصائص كل مرحلة في خصائصها الموضوعية والأسلوبية، وقد أشار الدكتور عدنان زرزور إلى هذه الحقيقة، وأكدها في قوله: « لقد عاشت الدعوة الإسلامية التي تعهدها القرآن الكريم طورين متميزين واضحين، ومرحلتين متعاقبتين، ولا بد من وضع عنوان واضح لكل مرحلة، والتماس

(١) التعبير الفني في القرآن: ٢١ .

(٢) انظر: دراسات في علوم القرآن الكريم: ٤٧، د. فهد الرومي، و: علوم القرآن الكريم: ٤٨، د. عبدالمنعم النمر

سماتها الخاصة، ومميزاتها الرئيسة بما يعين دارس القرآن الكريم على فهم المواقف والأحوال، ويمهد للوقوف على الخصائص البيانية والأسلوبية، ومزايا الأداء القرآني بوجه عام » .[1]

الوقفة الرابعة : أن البلاغة هي مراعاة حال القوم المخاطبين :

مما هو معلوم، أو مما ينبغي أن يُعلم أن لكل قوم ما يخصهم من الخطاب، وأن الخصائص سواء كانت موضوعية أو أسلوبية إنما تكون متلائمة ومتوافقة مع القوم الذين يُخاطبون بها، وما البلاغة إلا هذه، فهي التي تراعي أحوال المخاطبين، وهي التي تُعنى بالمقامات، والأحوال التي يكون عليها المخاطبون[2]، ومبحث المكي والمدني في القرآن الكريم تأكيد لهذه القضية، فإن فيه تحقيقاً لهذه المسألة؛ إذ يتجلى فيه مراعاة حال المخاطب، وتباين الناس بالخطاب نظراً إلى اختلاف الحال، وتعدد المقامات، وتباين الناس المخاطبين بهذه الآيات، ولا غرو في ذلك « فإن لكل مقام مقالاً، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب المكي في القرآن المدني تعطي الدارس منهجاً لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، وتمتلك عليه لبه ومشاعره، وتعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها، وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم، وأحوال بيئتهم، ويبدو هذا واضحا جلياً

(١) علوم القرآن: ١٣٥، للدكتور عدنان محمد زرزور .

(٢) انظر: الإيضاح: ١/ ٢٦، للخطيب القزويني .

بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والكافرين والمنافقين، وأهل الكتاب ». [1]

ولذا فإن تباين خطاب القرآن الكريم مرده إلى تعدد المخاطبين، وتباين مواقفهم من الدعوة، ومن صاحبها، ويكاد يكون هذا الأمر مطرداً في أسلوب القرآن الكريم كله، كما أنه ملحوظ فيه هذا الأمر، ومشهود له بذلك، وذلك وجه من وجوه إعجاز القرآن، وسرٌّ من أسرار خلوده، ولذا « فإن أسلوب القرآن الكريم بنوعيه المكي والمدني يبقى هو الأسلوب المعجز الذي تميز عن أساليب العرب، بل البشر جميعاً، وبلغ الذروة في الجمال والروعة الإشراق». [2]

ومن الإشارات المتقدمة في ذلك كلام الجاحظ، فقد لاحظ تباين أسلوب القرآن في مخاطبته للعرب، وفي مخاطبته لأهل الكتاب، فأطلق في ذلك عبارته المشهورة، حين قال: « ورأينا أن الله – تبارك وتعالى – إذا خاطب العرب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام». [3]

وقد علل صاحب " مناهل العرفان" هذه الظاهرة الأسلوبية لخطاب القرآن الكريم، وزادها بياناً وإيضاحاً في قوله: « لأن القصر مظهر الإيجاز، والإيجاز مظهر رقي المخاطب، وآية فهمه وذكائه، بحيث يكفيه من الكلام

---

(١) مباحث في علوم القرآن: ٥٩ .

(٢) تأملات قرآنية بحث منهجي في علوم القرآن الكريم: ٤٢

(٣) الحيوان: ١/ ٩٤

موجزه، ومن الخطاب أقصره، أما من كان دونه ذكاء وفهماً فلا سبيل إلى إفادته إلا بالإسهاب والبسط، ولهذا المعنى جاء قسم المكي قصيراً موجزاً في معظمه، وجاء المدني طويلا مسهباً في أكثره». [1]

بل لم يقف هذا التباين في خطاب الله للعرب والأعراب عنه في مخاطبة أهل الكتاب، بل إن خطابه للعرب وأهل العربية متباين فيما بينه كذلك، ومن هنا جاء اختلاف خطاب الآيات المكية، عن الآيات المدنية، وتمايز كل خطاب عن الآخر، حتى صار لكل واحد منهما خصائصه وسماته التي يُعرف بها، وتميزه عن الآخر، كما هو معروف ومقرر في كتب علوم القرآن، ولهم في ذلك جهود مشهودة ومشكورة.

ولذا فإن الحق الذي لا مراء فيه « أن القرآن الكريم قائم على رعاية حال المخاطبين، فتارة يشتد، وتارة يلين؛ لِما يقتضيه حالهم سواء منهم مكيهم ومدنيهم، بدليل أنك تجد بين ثنايا السور المكية والمدنية ما هو وعد ووعيد، وتسامح وتسديد، وأخذ ورد، وجذب وشد... وإذا لُوحظ أن أهل مكة كثر خطابهم بالشدة والعنف، فذلك لما مردوا عليه من أذى الرسول وأصحابه، والكيد لهم حتى أخرجوهم من أوطانهم، ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا إليهم الأذى في مهاجرهم». [2]

ومن هنا تتجلى علاقة هذا الموضوع، وشدة وثاقته بالبلاغة، ومن ثم جاءت الرغبة في الكتابة فيه؛ للوقوف عند خصائص هذا الخطاب، وبيان شيء من

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ٢١٩، للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني .

(٢) المصدر السابق: ١/ ٢١٤ .

أسراره البلاغية، ونكته البيانية.

فإذا تبين هذا وتقرر فما خصائص القوم الذين عاشوا في العهد المكي، وما صفاتهم وطباعهم التي كانوا عليها؟ فلا بد من بيان حال القوم الذين عاشوا في هذه الحقبة المهمة، كيف لا؟! وهي تمثل جزءاً كبيراً ومهما من مراحل الدعوة، وقد نزل فيها أكثر القرآن، فلا بد من النظر في حالهم وبيانه؛ لنرى كيف جاءت خصائص الخطاب المكي متوافقة معها، ومنبثقة منها.

فأقول - بادئ ذي بدء - : إن القرآن الكريم إنما نزل لمعالجة النفوس وإرشادها إلى سبيل الحق والرشاد، من أجل هدايتها والسلوك بها الطريق المستقيم، ومن ثَم جاء القرآن لمخاطبة هذه النفوس، ودعوتها إلى المبادئ والقيم التي يجب أن تؤمن بها، وتعمل بمقتضاها، وتقبل عليها، ولذا فمن المهم معرفة طبيعة هذه النفوس، وما جُبلتْ عليه من الخصائص والطباع، فما هي صفات القوم في العهد المكي؟ وكيف كانت طباعهم؟ وما أبرز خصائصهم وخلالهم التي كانوا عليها؟ وكيف تقبلوا واستقبلوا القرآن الكريم لما نزل عليهم؟ أقول تبياناً لهذا كله: نزل القرآن الكريم في هذا العهد و القوم في جاهلية جهلاء تعمي وتصم، يعبدون الأصنام، ويشركون بالله العظيم، ويكذبون بيوم الدين، وهم مع ذلك غلاظ الأكباد، قساة القلوب، جفاة الطباع، أهل حمية وجاهلية، وعناد وعنجهية، نشؤوا في الشرك، وشبوا عليه، ولهم عاداتهم وتقاليدهم، تعصبوا لها، وقدسوها، بل بنوا عليها حياتهم، وألفوها وركنوا إليها، وهم مع هذا كله ألداء في

الخصومة، أهل مماراة وجدل، ولجاجة في القول، يصدرون في ذلك كله عن فصاحة وبيان، فقد ملكوا أزمته، وقادوه حيث شاؤوا فانقاد لهم يصرفونه حيث يشاؤون. [1]

وقد كان المشركون في هذه الحقبة من زمن الدعوة هم الكثرة الكاثرة، والسواد الأعظم، وقد وقفوا في وجه هذه الدعوة الجديدة، وفي وجه أصحابها، وشنوا عليهم حرباً شعواء، لا تبقي ولا تذر، وقد سعوا بما أُوتوا من عدة وعتاد ألا يظهر هذا الدين، وألا ترتفع له راية، ولكن الله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وقد تزعم هذا الموقف، وقاد هذه الحرب أهل الزعامة منهم والمكانة، فهم الذين يخافون على مناصبهم وعروشهم، وهم الذين يحرصون على بقائها غير منازعين فيها، ولذا فقد ناصبوا الدعوة الجديدة العداء، وحاربوا من جاء بها، وأنكروا القرآن نكراناً شديداً، وكذبوا بالرسالة، وكفروا بها، ورموا أصحابه بكل نقيصة، واتهموهم بكل إفك مفترى. [2]

الوقفة الخامسة: خصائص الخطاب في العهد المكي:

يحسن- قبل الحديث عن خصائص الخطاب في العهد المكي – الحديثُ عن هذه الخصائص، وتلك الضوابط، من حيث أنواعها، وجهود العلماء في بيانها، والإشارة إلى أقسامها.

---

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن والحديث: ٥٩، د. يوسف خليف، و: تأملات قرآنية: بحث منهجي في علوم القرآن الكريم: ٣٨ .

(٢) انظر: علوم القرآن الكريم: ٥٤، و: التعبير الفني في القرآن الكريم: ٤٧ .

ذكر علماء القرآن المعنيون بالمكي والمدني في القرآن الكريم أن هناك منهجين أساسيين في معرفة المكي والمدني، تم الاعتماد عليهما في بيان الآيات المكية، والأخرى المدنية، وهذان المنهجان هما: المنهج الأول: المنهج السماعي النقلي، وأما المنهج الآخر: فهو المنهج القياسي الاجتهادي . [١]

وفيما يأتي بيان لكل منهج من هذين المنهجين، فأما المراد بالمنهج السماعي النقلي: فيرجع إلى النقل عن الصحابة – رضوان الله عليهم – الذين عاصروا الوحي، وشهدوا التنزيل، وحضروا الحوادث، والأماكن والوقائع التي نزل فيها القرآن، وتكلم عنها، أو عن التابعين الذين عاصروا الصحابة، وتلقوا عنهم، وسمعوا منهم كيفية نزول القرآن، ووقته، وعرفوا منهم مواقعه وأحداثه. [٢]

إذن فهذا هو المصدر الأول في معرفة المكي والمدني، « ومعظم ما ورد في المكي والمدني من هذا القبيل، وقد حفلت بها كتب التفسير بالمأثور، ومؤلفات أسباب النزول، ومباحث علوم القرآن». [٣]

ومن وَقَفَ على كتب علوم القرآن، ونظر فيها وجد مصداق ذلك،

---

(١) للوقوف على هذين المنهجين، والاستزادة منهما ينظر: البرهان في علوم القرآن:١/ ١٩١، الانتصار للقرآن:١/ ٢٤٧، للباقلاني و:المكي والمدني في القرآن الكريم:١٨، الدكتور محمد بن عبدالرحمن الشايع، و:إتقان البرهان في علوم القرآن:١ / ٣٧١، للدكتور فضل حسن عباس، وتأملات قرآنية:٤٢، للدكتور موسى الإبراهيم، وغيرهم.

(٢) انظر: الانتصار للقرآن: ١/ ٢٤٧، و: تأملات قرآنية: ٤٣ .

(٣) مباحث في علوم القرآن: ٦٠، د. مناع القطان .

ووجد فيها قولاً شافياً، وجواباً كافياً في حديث العلماء عن السور المكية، والأخرى المدنية في القرآن الكريم، والسور التي اختلف فيها العلماء، يجد ذلك مفصلا تفصيلاً، ومبيناً بياناً كاملا. [1]

إذن فهذا هو المراد بالمنهج السماعي النقلي في معرفة المكي والمدني في القرآن الكريم، والذي لا ريب فيه أن هذا المنهج« هو المرجع، وهو الطريق الأساس في تحديد المكي والمدني من القرآن الكريم؛ على اعتبار أن من عايشوا التنزيل ومواطنه وكافة ملابساته هم المصدر الأوثق في هذا التحديد، وعلى اعتبار أن هذا المصدر هو الفيصل أيضاً فيما يشكل تحديده». [2]

بيد أن العلماء لم يكتفوا بهذا الطريق، ويقفوا عنده، بل أضافوا إليه المنهج الآخر، والسبب في ذلك أنه لم يرد عن رسول الله ﷺ شيء في ذلك يصح الاقتصار عليه، والاكتفاء به، ولكن: «يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن رسول الله ﷺ في ذلك قول؛ لأنه لم يُؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب بعضه على أهل العلم، ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يُعرف ذلك بغير نص الرسول ﷺ». [3]

ولذا فالنقل والسماع لا ينهض وحده في تحديد المكي والمدني في

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٩٣، والمكي والمدني: ٥٤، وغيرهما

(٢) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني : ٣٦ .

(٣) مباحث في علوم القرآن: ٦١ .

القرآن الكريم، ولذا كان ثمة منهج آخر في معرفة المكي والمدني، وهو المنهج القياسي الاجتهادي، والمراد به: ذلك المنهج الذي يعتمد على الخصائص الموضوعية والأسلوبية لكل من المكي والمدني، وهي خصائص مطردة، أو تكون مبنية على الغالب[١]، تقوم على التأمل والتدبر لآيات القرآن الكريم « فإذا ورد في السور المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني، أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مدنية، وإذا ورد في السور المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي، أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مكية، وإذا وجدوا فيها خصائص المدني قالوا إنها مدنية ». [٢]

ولكن ينبغي أن يعلم أن هذه الخصائص لكل من المكي والمدني « ليست فروقاً قاطعة أو حادة، ولكنها تمثل الطابع الرئيسي والملامح العامة، والخواص الغالبة لكل من الآيات المكية والمدنية ». [٣]

كما أن هذه الخصائص قائمة على التأمل والنظر، ولذا فيسمي أحد الباحثين هذا المنهج بالمنهج الاستنباطي[٤] ، وصدق في ذلك؛ ففي هذه التسمية إشارة إلى طبيعة هذا المنهج، وإلى ما يحتاجه المتأمل من إطالة النظر، وطول التأمل والتدبر؛ للوقوف على هذه الخصائص وتحديدها، من أجل تمايز خصائص كل مرحلة عن الأخرى، ومفارقتها لها في خصائصها

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن: ٦١، و: المكي والمدني في القرآن الكريم: ٢١ .

(٢) مباحث في علوم القرآن: ٦١ .

(٣) علوم القرآن: ١٤٠

(٤) تأملات قرآنية: ٤٢

الموضوعية والأسلوبية، وإن هذا العمل لشاق عسير يحتاج إلى المتخصصين المتمكنين من ذوي البصائر والنظر.

وقد أشار أحد العلماء إلى طبيعة هذا العمل وصعوبته في قوله « إنه ليس بصعب على أي مهتم بالدراسات القرآنية أن يكتشف عشرات الضوابط المطلقة أو الغالبة لكل من السور المكية، والسور المدنية عن طريق المصادر الإحصائية الحديثة لتعبيرات القرآن وألفاظه... لكن الذي يحتاج إلى بذل الجهد حقا هو: اختيار الضوابط الأوضح تعبيراً عن مرحلتها مع الربط بينها وبين هذه المرحلة، بما يتيح المزيد من الكشف عن طريقة الخطاب القرآني في معالجته لقضاياه، واختياره لأساليبه وألفاظه حسبما يناسب هذه القضايا، وحسبما يناسب المرحلة الزمنية التي تتنزل فيها سوره وآياته، فنعرف من خلال ذلك إلى أي مدى تتلاءم الألفاظ والأساليب مع القضايا، أو مع الواقع الذي تتعلق به، ولِمَ يقتصر شيء منها تماماً على مرحلة دون مرحلة، أو يكثر استخدامه في مرحلة بعينها، وإن لم يغب عن المرحلة الأخرى، أو يكاد يظهر مشتركاً أو متساوياً بين المرحلتين، وما أثر هذه المعرفة في إيضاح مقاصد القرآن وخصائصه من ناحية، وفي الإسهام بمزيد من العطاء في قضية إعجازه من ناحية أخرى، ونحو ذلك». [1]

إذن فهذان هما الطريقان الوحيدان لمعرفة المكي والمدني في القرآن الكريم، وهذان المنهجان معروفان لدى المهتمين بالقرآن وعلومه، وثمة

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٢٢٨ .

إشارة متقدمة إلى هذين المنهجين، ومن ذلك ما ذكره الإمام السيوطي عن برهان الدين الجعبري المقرئ، فقد نقل عنه قوله:« لمعرفة المكي والمدني طريقان: سماعي، وقياسي». [(١)]

وينبغي أن يعلم أن هذين المنهجين يكمل بعضهما بعضاً، وأنه لا تعارض بينهما، ولكل واحد منهما مجالاته، ولكل من هذين المنهجين رجاله المتخصصون فيه.

خصائص الخطاب المكي:

وسيُعنى هذا البحث بالمنهج الثاني، وهو المنهج الاجتهادي الاستنباطي لبيان خصائص العهد المكي، وسيقتصر – كذلك – على الخصائص الأسلوبية تنظيراً في هذا المبحث، وتطبيقاً في المبحث الثاني في سورة القارعة

وسيعتمد على المنهج على النص نفسه، وسينطلق منه، تأملا و تدبراً، وهو أمر من الأهمية بمكان؛ وذلك أن « النص القرآني هو الذي صنع أمة لم يكن لها قبله وجود بين الأمم، وقوض أمماً كانت على عهده أعظم الأمم، إنه الكتاب الذي غيَّر وجه التاريخ، ولكي نعرف كيف تم هذا التغيير يلزمنا الخوض في علوم ومباحث متعددة، أهمها العلم الدقيق بتاريخ النص القرآني، وبكافة المراحل الزمنية التي مرَّ بها، وذلك لكي نقوم بعملية مطابقة بين هذا التاريخ، وتاريخ الواقع نفسه، واقع بيئة الدعوة وما حولها،

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٨٩ .

وواقع الدعوة ذاتها من ناحية أحداثها وظروفها التفصيلية، وواقع الداعية نفسه المتمثل في سيرته، نقوم بهذه المطابقة لنعرف كيف تعامل القرآن مع هذا الواقع بجميع أنواعه؟ كيف عالجه؟ أو تفاعل معه أو وجَّهه، حتى انتهى به إلى ما انتهى إليه من بناء الأمة التي بناها، أو من إحداث ما أحدثه من التغيير العظيم». [1]

وقد سبقت الإشارة إلى خصائص القوم الذين عاشوا في العهد المكي، وبيان شيء من أوصافهم، وما جُبلوا عليه وطُبعوا، وقد كان ذكر هذه الخصائص بمنزلة التوطئة والتمهيد لبيان خصائص الخطاب المكي، فإذا كانت تلك أوصافهم، وهذه هي خصائصهم فكيف تمت مخاطبتهم؟ وكيف جاء الخطاب القرآني في العهد المكي متوافقاً مع تلك النفوس؟ وكيف جاء مراعياً لتلك الأحوال كلها؟ والظروف التي مرت بها الدعوة في العهد المكي؟

فإذا كانت تلك أحوالهم، وذلك ما طُبعوا عليه من الجحود والإنكار، ومن الكفر و العناد فهل من المناسب – والحالة هذه، ومع هذا العدو المتغطرس المكابر – أن يكون الخطاب معه « بأسلوب لين هادئ، بعد أن ضاعت معه أساليب المنطق الهادئة؟ لا؛ فكلما كان الموقف يحتاج إلى حسم وشدة وتخويف وتهديد وزجر كانت الفقرات القصيرة، والكلمات المعبرة الشديدة الوقع أشد مناسبة لهذا الموقف، وهكذا كان القرآن وهو في

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٣٢ .

الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة، ومراعاة مقتضى الحال، فإذا وجدتَ آيات أو سوراً قصيرة، وأسلوباً يزمجر، ويهدد ويقسو ويشتد، ويرد هجوماً على رسول اللهﷺ، ويهدد المعتدين، فاعلم أن هذه آيات مكية». [١]

ومن هنا تميز الخطاب المكي بأنه قوارعُ زاجرة، وشُهُبٌ منذرِة، وحِممٌ مُحْرِقة، وحُججٌ ناطقة تزلزل عرش وثنيتهم، وتحطم كبرياءهم، وتسفه أحلامهم، وتسوق لهم قصص الغابرين؛ عظة وذكرى لهم، وتبين لهم دلائل النبوة، وتبين لهم حقيقة الحياة الدنيا، وتضرب لهم الأمثال، وتذكر الحياة الآخرة، وتبين مافيها من جنة ونار، وما يكون فيها من نعيم للمؤمنين، وعذاب للكافرين. [٢]

وقد تم التعبير عن هذه المعاني « بألفاظ شديدة القرع على المسامع، تقذف حروفها شَرَر الوعيد، وألسنة العذاب، فـ" كلا" الرادعة الزاجرة، والصاخبة والقارعة والغاشية والواقعة، و ألفاظ الهجاء في فواتح السور، وآيات التحدي في ثناياها، ومصير الأمم السابقة، وإقامة الأدلة الكونية، والبراهين العقلية، كل هذا تجده في خصائص القرآن المكي». [٣]

كما تم التعبير عن هذه المعاني بأسلوب قصير موجز، ولذا يكاد يكون الإيجاز، وقِصَر الآيات سمة بارزة في آيات العهد المكي وكلماته، وقد أكد هذه الخاصية، وأشار إليها كثير من العلماء ممن تحدث عن خصائص

(١) علوم القرآن الكريم: ٦١، د. عبدالمنعم نمر .

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن: ٥٢، مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ٢١٤ .

(٣) مباحث في علوم القرآن: ٥٢، للدكتور مناع القطان .

الخطاب في العهد المكي. [1]

ولذا فمن المقرر في هذا: أنه مما تميز به الخطاب المكي « أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات، صغيرة السور؛ لأنهم كانوا أهل فصاحة ولَسَن، صناعتهم الكلام، وهمتهم البيان، فيناسبهم الإيجاز والإقلال، دون الإسهاب و الإطناب». [2]

ويعلل الدكتور محمد عبدالعظيم الزرقاني سبب هذه الخاصية، وكثرة ورودها في الخطاب المكي بقوله: « ويرجع ذلك إلى أن القرشيين في مكة كانوا في الذؤابة من قبائل العرب ذكاء وألمعية وفصاحة وبلاغة، وشرفاً وشجاعة، فلا بدع أن يخاطبهم القرآن بالقصير من سوره وآياته؛ رعاية لحق قانون البلاغة والبيان في خطاب الذكي النابه بغير ما يخاطب به من كان دونه». [3]

وخصائص الخطاب المكي كثيرة غير محصورة فيما ذُكر، ولا أريد الإطالة في الحديث النظري عن هذه الخصائص في هذا المبحث، بل سأتوجه بالحديث عنها تطبيقاً من خلال سورة " القارعة"، فذلك هو لبُّ هذه الدراسة، والمقصود من هذا البحث.

---

(١) انظر: كتاب الحيوان: ١/ ٩٤، و: علوم القرآن: ١٤٣ و: مناهل العرفان في علوم القرآن:١/ ٢٠٦ .

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ٢٠٦ .

(٣) المصدر السابق: ١/ ٢٠٩ .

المبحث الثاني: خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة

يُعدُّ هذا المبحث الجانب التطبيقي في هذا البحث، كما أنه توظيف لما يذكره المتخصصون في علوم القرآن قديماً وحديثاً عن خصائص الخطاب المكي في القرآن.

والأهم في مثل هذه الدراسات أن نفيد مما يذكره العلماء في كل ما يتعلق بالمكي والمدني، وأن نوظف ذلك الموروث الهائل الذي ذكره العلماء قديماً وحديثاً في هذا المجال، ونترجمه إلى دراسات بلاغية تطبيقية تبرز بلاغة القرآن الكريم، وتظهر إعجازه.

وقد دعا كثير ممن كتبوا في المكي والمدني إلى هذه القضية، وأشاروا إليها، ومن ذلك الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الشايع –وهو ممن كتبوا في المكي والمدني في القرآن– يقول –بعد أن ذكر عدداً من ضوابط السور المكية –: « ومن تمام الفائدة تلمس أسرار هذا الارتباط بين تلك السور والألفاظ وبين السور المكية، واطرادها فيها، واقتصارها عليه، وصلة ذلك بأحوال الدعوة، وأحداث السيرة في الفترة المكية، وأثر ذلك في تفسير الآيات، وإدارك المعاني والهدايات لها». [1]

وممن أكد هذه القضية، ودعا إليها، الدكتور السيد عبدالمقصود جعفر، وهو ممن عُني بهذه القضية، وكتب فيها كتابه القيم " مقدمة في

---

(١) المكي والمدني في القرآن الكريم: ٤٠ .

خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني"، وقد ذكر عدداً من الضوابط للعهد المكي القديمة والحديثة، السماعية والقياسية، ثم ختم ذلك بقوله: « ولا يخفى أن معرفة هذه الخصائص المذكورة يُعدُّ – أو يجب أن يكون – هو الثمرة الحقيقية لدراسة قضية " المكي والمدني"، فما هذه الخصائص إلا مزيد عطاء في تفسير القرآن، وبيان إعجازه، إن لم تكن هي العطاء نفسه، وما من شيء في القرآن يراد تفسيره إلا هو مستفيد من الدراية بهذه الخصائص؛ لأنه ما من سورة أو آية إلا هي مكية أو مدنية ». [1]

ويعود مرة أخرى ويؤكد على هذه القضية مشيراً إلى أن الثمرة الحقيقية من معرفة المكي والمدني هي: « الإسهام في إثراء المباحث الخاصة بإعجاز القرآن، وذلك بالتوصل إلى نتائج مخصوصة لا يمكن التوصل إليها إلا بدراسة القرآن موضوعياً وأسلوبياً في ظل هاتين المرحلتين المتميزتين، فنعرف كيف عالج هذا الكتاب قضاياه بطريقة فريدة تتلاءم وطبيعة كل مرحلة، وكيف تميز قاموسه اللغوي تميزاً فريداً أيضا حسب خصائص كل منهما، وحسب ما يلائم هذه الخصائص من أساليب أو تشكيلات لغوية متنوعة ». [2]

وممن أشار إلى هذه القضية، وأكد عليها، ودعا إليها الدكتور عبدالعظيم المطعني، فقد تحدث عن خصائص الخطاب القرآني، وذكر أن هذه الخصائص مستمدة من القرآن نفسه، ومن ثَم ينبغي الإفادة منها في

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٧

(٢) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٣٤

دراسة النص القرآني، وتوظيفها للوقوف على أسرار القرآن البلاغية، ونكته البيانية، يقول:« ومن أبرز ما يهتم به هذا البحث الاعتماد على القرآن نفسه في استنتاج ما أمكن استنتاجه، بالنظر في طرق الصياغة، وبالرجوع إلى أسباب النزول، وبالوقوف على السابق واللاحق نزولاً، وبالتفريق بين ما هو مكي وما هو مدني، وبقرائن الأحوال، ومقتضيات المقامات، ثم بالرجوع إلى الدلالات اللغوية لألفاظه من حيث اللغة في نفسها، ومن حيث وجودها في سياق معين ». [١]

ومن هنا جاء هذا البحث؛ للنظر في خصائص الخطاب المكي في سورة " القارعة"، فهي دراسة تطبيقية، تفيد مما ذكره علماء القرآن تنظيراً فيما يتعلق بخصائص الآيات المكية، وبيان ضابطها، كما أنها تنطلق في هذه الدراسة من النص القرآني؛ لسبر أغواره، والنظر في دقائقه، والوقوف على أسراره البلاغية؛ لبيان الخصائص التي تضمنتها هذه السورة، التي جاءت متوافقة مع من خُوطبوا بها، وفق الظروف المحيطة بهم، ومع ما يتوافق مع خصائصه وصفاتهم، فقد رُوعي أحوال المخاطبين بهذه السورة، ونُظر ماهم عليه من صفات وأحوال، وقد جاء ذلك كله بأسلوب عربي مبين، أعجز الفصحاء، وتحدى البلغاء، وبلغ الغاية من الفصاحة والبلاغة.

يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ١/ ٩

ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

افتُتحت السورة بقوله ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾، ويُعد هذا الافتتاح من براعة الاستهلال الذي تميزت به هذه السورة، كما أن ذلك امتداد لما تميزت به كثير من السور في العهد المكي فقد تميزت بفواتحها البليغة، وقد حسُن الافتتاح، وتمكن في هذا المقام؛ لمناسبة مضمونه، في إظهار عِظم اليوم المتحدث عنه في هذه الآيات في صدر هذه السورة، ولا غرو أن تأتي بهذه البلاغة، وبهذا الحسن من البراعة في الاستهلال، فهي من المواضع التي يُتأنق فيها؛ فتكون أعذب لفظا، وأحسن سبكاً، وأوضح معنى[1] ؛ لكونها أول ما يقرع السمع، فيكون ذلك سبباً للإقبال عليها، والإصغاء لها، وسبب هذا الحسن أن فيها إشارة إلى المقصود، وتحقيقاً للمراد، فقد تضمنت الإشارة إلى ما سيق الكلام من أجله، فيبين المقصود، ويكشف عنه في أبلغ عبارة، وأجزل معنى [2]، ولذا فإن« الافتتاح بلفظ " القارعة" افتتاح مهول، وفيه تشويق إلى معرفة ما سيخبر به». [3]

(١) انظر: الإيضاح: ٤/ ١٤٨ .

(٢) انظر: علم البديع: ٢٥٧، للدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٠٩ .

والمراد بـ" القارعة": ((الساعة التي يقرع قلوب الناس هولُها، وعظيم ما ينزل بهم من البلاء عندها، وذلك صبيحة لا ليل بعدها))[١]، وهي من أسماء يوم القيامة، وهذا هو رأي جمهور المفسرين، وأن المراد بها: القيامة نفسها[٢]، التي مبدؤها النفخة الأولى، ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق.[٣]

ولذا فهي كالحاقة، والطامة، والغاشية، والصاخة، وغير ذلك، ((ومعلوم أن الشيء إذا عظم خطره كثرت أسماؤه، أو كما روي عن الإمام علي: كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى، ومعلوم أن ذلك ليس من المترادفات، فإن لكل اسم دلالة على معنى خاص به، فالواقعة لصدق وقوعها، والحاقة؛ لتحقق وقوعها؛ والطامة؛ لأنها تطم وتعم بأحوالها، والآزفة؛ من قرب وقوعها، وهكذا)). [٤]

وقد سُميت القارعة بهذا الاسم؛ لأنها تقرع القلوب بهولها[٥] ، يدل على ذلك قول العرب: قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفارقة؛ وذلك إذا حلَّ بهم أمر فظيع، وخطب جسيم، وقد جاء القرآن بهذا المعنى، وذلك في قوله ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾[٦] ، والمراد بها: شدائد الدهر، ومصائبه التي تصيبهم، وتحل

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٣ .

(٢) انظر: التفسير البسيط: ٢٤/ ٢٦٢، و: المحرر الوجيز: ٥/ ٥١٦ .

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩٢ .

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٩/ ٤٥٧ .

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٧٧، و: معالم التنزيل: ٤/ ٥١٩ .

(٦) الرعد: ٣١ .

قريباً من دارهم. [1]

ولذا فقد تضمنت هذه اللفظة معنى القرع والهول واللطم، فهي تقرع القلوب بهولها، والأسماع بشدة صوتها، ومن هنا ناسب الافتتاح بها في هذه السورة، ففي ذلك تحقيق لغرض السورة، وكشف له، ولا غرو في هذا « فالسورة كلها عن هذه القارعة حقيقتها، وما يقع فيها، وما تنتهي إليه، فهي تعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة». [2]

فالقارعة إذن اسم من أسماء يوم القيامة، سُميت بذلك؛ لأن القلوب تقرع فيها، وكذلك الأسماع، ولذا فإن في هذه التسمية مجازاً عقلياً[3] ، فهو كقولهم: ليل قائم، ونهار صائم، فقد أسندت الأهوال، وشدة القرع إلى هذا اليوم؛ لشدته وكثرة ما يكون فيه من القرع والضرب، وشدة الهول، وإنْ كان القرع والهول للناس في عرصات هذا اليوم. [4]

وبعد أن ذكر – سبحانه – القارعة، وهوَّل أمرها، أعاد ذكرها، وبيَّن شدتها مكرراً ذلك في قوله ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ ﴾، والمعنى: « أي شيء القارعة، يعني بذلك: أي شيء الساعة، التي يقرع الخلق هولها، أي ما أعظمها، وأفظعها وأهولها»[5]، ولذا فالاستفهام الوارد فيها دال على معنى

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٦٤ .

(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠ .

(٣) انظر: البحر المحيط: ٨/ ٣١٥

(٤) انظر: حاشية القونوي على تفسير البيضاوي : ٤/ ٦٨٨ .

(٥) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٤ .

التعجب، والتعظيم لها، لشدة هولها [١]، وهو كقولك: زيد ما زيد،« على معنى التعظيم له، والإبهام في التعظيم أيضاً؛ ليتخيل السامع أقصى جهده». [٢]

كما أن في التكرار تهويلاً لأمرها، وتفخيماً لشأنها [٣]، يدل على هذا التهويل، وذلك التعظيم الإظهار الوارد فيها وحقه الإضمار، إذ لو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: القارعة ماهيه، ولكن جاء الكلام هنا على خلاف مقتضى الظاهر؛ لما في اللفظ المكرر من التهويل والترويع والتعظيم[٤]، كما أن فيه تفخيماً لشأنها، وزيادة في التهويل والتقرير. [٥]

وهذا كقوله ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ ﴾ إلا أن قوله ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ ﴾ أشد هولا؛ لأن «المقصود منه زيادة التنبيه، وهذه الزيادة لا تحصل إلا إذا كانت أقوى، وأما بالنظر إلى المعنى فالحاقة أشد؛ لكونه راجعاً إلى معنى العدل، والقارعة أشد؛ لِما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل». [٦]

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٨/ ٥٠٣

(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٣٥٦ .

(٣) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ٤/ ٦٨٨،

(٤) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٠ .

(٥) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ٤/ ٦٨٨،

(٦) التفسير الكبير: ٣٢/ ٦٨ ، وليست هذه المفاضلة على إطلاقها، فإن كلا منهما بليغ في مقامه، فقد أدى الغرض منه، وحقق مراده في السياق الذي ورد فيه، والمقام الذي تطلبه.

يدل على شدة هولها، وعظيم شأنها قوله – تعالى – ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾؛ فإن فيها دلالة على تأكيد هولها، وشديد فظاعتها؛ وذلك «بخروجها عن دائرة علوم الخلق على معنى أن عظم شأنها بحيث لا تكاد تناله دراية أحد حتى يدريك بها»[1]، فلا أحد يحيط بها خبراً، ولا يدرك أحد كنهها، فلا تبلغه عقولهم، ولا تحيط بها علومهم، فهم لم يعهدوا مثلها، فهي حالة لا يحيط أحد بها حتى يعلمك أمرها، وبيان خبرها [2]، فهي ليست كالقوارع الأخرى في هولها وشدتها، وكذلك القارعة فهي خارجة عن دائرة العلوم، فلا تطولها درايتهم، ولا تقع تحت علمهم[3]؛ إذ لا علم لهم بكنهها؛« لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد، ولا فهمه، وكيفما قدرته فهو أعظم من تقديرك، كأنه تعالى قال: قوارع الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار، ولذا قال في آخر السورة ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾؛ تنبيهاً على أن نار الدنيا في جنب تلك ليست بحامية، وصار آخر السورة مطابقاً لأولها من هذا الوجه». [4]

ولذا فلا سبيل إلى الدراية بها، والإحاطة بهولها إلا عن طريق الوحي، ونزول القرآن ببيانها، وبذكر شيء من أهولها، ولذا جاء الحديث عنها بقوله

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩٢ .

(٢) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ٤/ ٤١١ .

(٣) انظر: فتح القدير: ٥/ ٤٨٦ .

(٤) التفسير الكبير:٣٢/ ٦٨

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ ﴾، ومن هنا يُعلم أن ((كل ما جاء " وما أدراك" أنه يدريه، وما " يدريك" لا يدريه، وقد أدراه هنا بقوله ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾))[1]

ومن يتأمل الآيات السابقات، ويمعن النظر فيها يدرك كثيراً من خصائص الخطاب المكي التي توافرت فيها؛ وذلك أن افتتاح السورة بقوله ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ ﴾، والابتداء بقوله ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ ﴾، بهذه اللفظة التي تحمل في طياتها كل معاني الهول، وشدة القرع ثم تكرارها، والاستفهام بها لغرض التعظيم والتفخيم والتعجب لشدة هولها، وكثرة أهوالها، ومن ثم الإشارة إلى أنها أكبر من أن تحيط بها عقول المخاطبين بها، وأن تكون تحت درايتهم، فإن هذا كله يتناسب مع عِظم هذا اليوم وشدته، ولذا جاءت الألفاظ، وهذه التراكيب متوافقة أتم التوافق في الدلالة على هذا المعاني وتأكيدها، ومن هنا جاءت الألفاظ مصورة هذه المعاني أتم تصوير، ولذا فإن« من تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة، فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء، وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر؛ تمهيداً لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء».[2]

وفي هذا تأكيد لما سبق تقريره بتميز الخطاب المكي بقوته، وأنه قوارعُ

---

(١) أضواء البيان: ٩/ ٤٥٨ .

(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠ .

زاجرة، وشُهُبٌ منذِرة، وحِمَمُ محرقة، كما تجلى في هذه الآيات فقد تم التعبير عن القارعة بألفاظ شديدة القرع على المسامع، تقذف حروفها شرر الوعيد، وألسنة العذاب، لِمَ لا؟! والحديث فيها عن القارعة، و ما يكون فيها من الأهوال، وشدة العذاب.

وقد أدرك سيد قطب هذه الخاصية في هذه الآيات، وتحدث عنها حديثاً بليغاً، وعبر عنها تعبيراً صادقاً يقول: «﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾ لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ بلا خبر ولا صفة؛ لتلقي بظلالها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب، ثم أعقبها سؤال التهويل ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾، فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل، ثم أجاب بسؤال تجهيل ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾، فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك، وأن يلم بها التصور». [١]

ولذا فإن في هذا الاسم ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ تعظيماً لهذا اليوم، وتحذيرا – كذلك – لمن كفر به وكذَّب، يدل على ذلك قول ابن عباس: «﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ من أسماء يوم القيامة، عظَّمه الله، وحذَّره عباده»[٢]، وقد اقتضى حال من خُوطب بهذه الآيات أن يتم الحديث معهم عن القارعة بما

(١) المصدر السابق: ٦/ ٣٩٦٠ .

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٣ .

تضمنت من تحذيرهم، وتعظيم لها؛ علهم أن يؤمنوا بها، ويقلعوا عما هم فيه من الإعراض والإنكار.

وإن المتأمل لورود أسماء القيامة في القرآن الكريم يجد أن الحديث فيها يكاد يكون محصوراً في العهد المكي، وقد أدرك أحد الباحثين المهتمين بهذا العلم هذا الأمر، يدل على ذلك قوله: « أسماء القيامة المتعددة التي تشعر بخطرها العظيم ظاهرة واضحة في السور المكية، وذلك كالحاقة، والواقعة، والقارعة، والطامة، والصاخة، والراجفة، وهذه الأسماء وما يتبعها من صفات تشكل ظواهر أسلوبية، متميزة في طائفة من هذه السور، وبخاصة في أوائلها». [١]

كما جاء هذا الافتتاح، وهذه المقدمة لسورة " القارعة" متناسبة – كذلك – أتم التناسب مع خصائص الخطاب المكي؛ وذلك من خلال الاستفهام الذي افتُتحتْ به السورة، ومن خلال – كذلك – دلالة الاستفهام على معنى التعظيم والتفخيم والتعجب والتهويل لأمر القارعة، فكان بذلك غاية في حسن الابتداء، وفي براعة الاستهلال، ولذا فإن « الذي يلقي نظره على صيغ الاستفهام في القرآن يمكن أن يلحظ أن مجيئها فيه للغرض الأصلي من الاستفهام إنما هو في مواضع قليلة، بينما يعد خروجها عن هذا الغرض لأداء أغراض أخرى هو الغالب الأعم». [٢]

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ١٣٣ .

(٢) المصدر السابق: ١٢٤

وقد تجلت هذه الحقيقة في الاستفهام الوارد في قوله ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾، فقد أفاد الاستفهام فيها معنى التعظيم والتهويل والتفخيم، ومن هنا جاء الاستفهام في هذه السورة تأكيداً وتقريراً لخصائص الخطاب المكي التي تميزت بها سورة القارعة.

فضلاً عن صيغة الاستفهام الوارد في قوله ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾، فيُراد بهذا الاستفهام معنى التهويل والتعظيم لِما سيذكر بعده، وقد وردت هذه الصيغة ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم، وجميعها وارد في العهد المكي، وقد جاءت لتحقق خصائص السور المكية الأسلوبية والموضوعية، وجلُّ هذه المواضع في الحديث عن يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال، والدلالة على شدة العذاب والعقاب[1]، كما هو الشأن في سورة القارعة.

وقد ضم إلى أسلوب الاستفهام في هذا المقام أسلوب آخر، يكاد يكون خاصية من خصائص الخطاب المكي، ذلكم هو أسلوب التكرار، فلا يخفى التكرار الوارد في صدر هذه السورة في قوله ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾، ولا شك أن ثمة أثراً في توافر هذه الأساليب وتضافرها فيما بينها في إظهار المعنى الذي تضمنته، وفي تحقيق الغرض الذي سيقت له، كما أنها تشكل خاصية أسلوبية لخصائص الخطاب المكي في هذه السورة، ولذا فالذي لا شك فيه « أن تجاور هذه

(١) المصدر السابق: ١٣٢

الأدوات، أو المزج بينها يتحول بها إلى نوع من التركيز الذي يزيد من فعاليتها، كما أن تكرار أساليبها مما يتحول بها – أيضاً – إلى إيقاعات مدوية تجلي أغراضها، وتمكّن لها في النفوس». [١]

ولذا فقد أشار كثير من العلماء إلى أسلوب التكرار في كونه خاصية من خصائص الخطاب المكي، وعدَّوه ضابطاً من الضوابط الأسلوبية للسور المكية [٢]، يدل على هذه الخاصية ويؤكدها الدكتور السيد عبدالمقصود جعفر، يقول: « ولا يفوتني التنبيه على أن التكرار في حد ذاته يعدُّ خاصية أسلوبية بارزة من خصائص القرآن بوجه عام، والمكي منه بوجه خاص، كما أن آفاقه ووظائفه داخل دائرة القرآن تعطيه أبعاداً أرحب، وأعمق بكثير مما هو معروف له خارج هذه الدائرة». [٣]

ولعل السرَّ في توافر أسلوب التكرار في السور المكية هو « أن القرآن الكريم باعتباره كتاب دعوة في المقام الأول يركز على استخدام هذا الأسلوب المؤثر؛ ليثبت معانيه في نفوس قارئيه، وتقرير قضاياه في أفئدتهم؛ لينبثق عنها السلوك الفاضل الصادر عن إيمان مكين، واقتناع راسخ»[٤]، ومن هنا فقد« احتفى القرآن الكريم بأسلوب التكرير احتفاء عظيماً، وأكثر

(١) مقدمة في خصائص الخطاب المكي: ١٣٥

(٢) انظر: علوم القرآن: ١٤٤، عدنان زرزور، و: مقدمة في خصائص الخطاب المكي: ١٣٥، والمكي والمدني في القرآن الكريم:٤١، وغيرها .

(٣) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ١٣٥

(٤) أسلوب الدعوة القرآنية: ٣١٤

من استخدامه حتى صار سمة من سماته، وقد سبق أن تحدثنا عن الأثر النفسي للتكرير في تثبيت المعنى وتقريره حتى يصبح عقيدة راسخة، وأن ذلك شيء هُديت إليه الفطرة الإنسانية، فلجأ إلى تأكيد كلامه للسامع بتكرار ما يريد نقله إليه؛ لما رأى من أثر ذلك في تثبيت المعاني، وتأكيد الأفكار لديه)) (١)

ولم يكن هذا التكرار مقصوداً لذاته، وإنما تم توظيفه للتأثير في نفوس من خُوطبت به، ولذا فقد ضُمِّن هذا التكرار كثيراً من المعاني التي من شأنها أن تؤثر فيهم، وأن تزلزل الكفر من أعماق نفوسهم، وتجتثه من أصوله، يدل على هذه المعاني قول أبي حيان الأندلسي في تفسيره لقوله ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾ - يقول: (("ما" استفهام لا يُراد حقيقته، بل التعظيم، وأكثر ما يربط بتكرار المبتدأ إذا أريد معنى التعظيم والتهويل، فهي مبالغة في التهويل، والمعنى أن فيها ما لم يدر ولم يحط به وصف من أمورها الشاقة، وتفصيل أوصافها)) (٢)

وبعد أن أبهم – سبحانه – حال القارعة، وأنها لا تحيط بها الدراية، بيَّن حالها، وكشف أمرها، وبيّن حال الناس فيها، والأحوال التي يكونون عليها في ذلك اليوم، وذلك في قوله ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ

---

(١) أسلوب الدعوة القرآنية: ٣١٨، ولن أسترسل في الحديث عن بلاغة أسلوب التكرار ومقاماته، فقد أفردت ذلك في بحث مستقل، بعنوان: "من بلاغة التكرار في سورة المرسلات"، فأكتفي هنا بالإحالة إليه .

(٢) البحر المحيط: ٨/ ٣١٥ .

﴿ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾، ذكر – سبحانه – في هذه الآيات حال الناس، وحال الجبال، فأما البشر فسيكونون يوم القيامة ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ «أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث، كما قال – تعالى – في آية أخرى ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [١]» .[٢]

إذن فهذا هو المشهد الأول للقارعة «مشهد تطير له القلوب شعاعاً، وترجف منه الأوصال ارتجافا، ويحس السامع كأن كل شيء يثبت في الأرض قد طار حوله هباء» [٣]

والمتأمل لهذا التشبيه يجد أن وجه الشبه فيه جاء محذوفاً، ويكاد يكون هذا الأمر مطرداً في تشبيهات القرآن الكريم، والسرُّ في ذلك – والله أعلم – شدة المطابقة بين المشبه والمشبه به، فليس وجه الشبة بينهما واحداً ولا اثنين حتى يُذكر، كما أن في ذلك دعوة للتأمل والنظر في التشبيه ودلالاته، وأسراره للوقوف على وجه الشبه بينهما؛ حتى لا ينحصر الذهن، ولا يقف العقل عند وجه الشبه المذكور، ومن هنا فقد تعددت أقوال المفسرين في هذا التشبيه، وفي بيان وجه الشبه بين المشبه والمشبه به، وذلكم هو المراد، فإن في ذلك ثراء للمعنى، وقدحاً لزناد الفكر، ومزيداً من إمعان النظر، وبذلك يتحقق المراد من الغاية من نزول القرآن الكريم وهو طول التأمل وكثرة

---

(١) القمر: ٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٧٧ .

(٣) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦١ .

التدبر، وقد أشار الزمخشري إلى هذا التشبيه ودلالاته، يقول: « شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار» [1]

كما نظر الرازي في هذا التشبيه فذكر وجهاً آخر لوجه الشبه، يقول: «وأما وجه الشبه بالفراش؛ فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، يدل هذا على أنهم إذا بُعثوا فزعوا واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة» [2]

ذكر صاحب اللباب أقوالا متعددة في وجه الشبه بين الناس والفراش، وأشار إليها بقوله: « في تشبيه الناس بالفراش مبالغات شتى: منها الطيش الذي يلحقهم، وانتشارهم في الأرض، وركوب بعضهم بعضاً، والكثرة والضعف، والذل، والمجيء من غير ذهاب، والقصد إلى الداعي من كل جهة، والتطاير إلى النار»[3]، وقد أكد هذا المعنى بحديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه سمع رسول الله رسول اللهﷺ يقول: (إنما مثلي ومثل الناس: كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل الرجل يزعهنَّ ويغلبنه، فيقتحمن فيها،فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون

(١) الكشاف: ٤/ ٢٧٩ .

(٢) التفسير الكبير: ٣٢/ ٦٨

(٣) اللباب في علوم الكتاب: ٣٠/ ٣٦٩

فيها)[١]

وقد تم تشبيه الناس في هذه الآية بالفراش، وثمة آية أخرى تم فيها تشبيههم بالجراد المنتشر، وذلك في قوله ﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾[٢]، فأما تشبيههم بالجراد فهو لبيان الحالة التي يكون عليها الناس حين يجيبون الداعي، ويخرجون من قبورهم، فهم لكثرتهم، وشدة تزاحمهم يركب بعضهم بعضاً، ويموج بعضهم في بعض كالجراد، وقيل في الجمع بين هذين التشبيهين: إن« الناس أول قيامهم من القبور ﴿ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾؛ لأنهم يجيئون ويذهبون من غير نظام، يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر فهم حينئذ كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد إنما يتوجه إلى ناحية مقصودة» [٣]

كما أكد هذه الحقيقة الإمام الشنقيطي في قوله:« وقيل: إن وصفها بالفراش في أول حالها في الاضطراب والحيرة، ووصفهم بالجراد في الكثرة، ووحدة الاتجاه ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾[٤]» .[٥]

وذكر الرازي تساؤلاً على هذا التشبيه، وأجاب عنه، يقول:« فإن قيل: الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار، فكيف شُبه الشيء الواحد بالصغير

(١) أخرجه البخاري، رقم الحديث: ٦٤٨٣، كتاب الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي.

(٢) القمر: ٧ .

(٣) المحرر الوجيز: ٥/ ٥١٦ .

(٤) القمر: ٨ .

(٥) أضواء البيان: ٩/ ٤٦٠

والكبير معاً؟ قلنا: شبه الواحد بالصغير والكبير لكن في موضعين: أما التشبيه بالفراش فبذهاب كل واحدة إلى غير جهة الأولى، وأما بالجراد فبالكثرة والتتابع » [1]

ثم بيّن – سبحانه – حال الجبال يوم القيامة، وما يطرأ عليها من التغيير والأهوال في قوله ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ أي أنها تكون كالصوف المنفوش الذي آل إلى الذهاب والتمزق، فيكون هباء منثوراً[2]، فتكون الجبال كالعهن المنفوش؛ لتفرق أجزائها، وتحولها إلى الهباء المنثور المتطاير. [3]

والمتأمل في عطف الحديث عن الجبال بعد الحديث عن الناس يجد تكرار قوله " وَتَكُونُ " دون أن يقال: (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، والجبال كالعهن المنفوش) وقد ناسب هذا التكرار غرض التهويل والتعظيم[4]؛ ليكون أبلغ في التحذير، وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى سرِّ هذا التكرار، يقول:« وإعادة كلمة " يكون" مع حرف العطف؛ للإشارة إلى اختلاف الكونين؛ فإن أولهما: كون إيجاد، والثاني: كون اضمحلال، وكلاهما علامة على زوال عالم، وظهور عالم آخر» . [5]

وثمة مسألة أخرى في هذين التشبيهين، وهي بيان الحكمة من اقتران

(١) التفسير الكبير :٣٢/ ٦٩ .

(٢) انظر: معاني القرآن: ٣/ ٢٨٧، للفراء، و: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٧٧ .

(٣) انظر: الكشاف: ٤/ ٢٧٩ .

(٤) انظر: التفسير الكبير:٣٢/ ٦٩ .

(٥) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٣ .

الناس والجبال في الحديث عن أهوال هذه القارعة، وبيان أثرها عليهما، و الحكمة في ذلك: هي بيان شدة أثر هذه القارعة، وعظيم تأثيرها، فإذا كانت هذه القارعة صيِّرت الجبال على عظمتها، وشدة صلابتها إلى عهن منفوش ((فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها، فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم تتداركه رحمة به)).[(١)]

وقد جاء هذا التشبيه سواء في تشبيه الناس بالفراش المبثوث، أو الجبال بالعهن المنفوش مناسباً كل المناسبة للسورة التي ورد فيها هذا التشبيه، فكأن القارعة بما تحوي من دلالات وإيحاءات، وكأن حال الناس فيها ناسب هذا التشبيه، واقتضاه دون غيره مما ورد في السور الأخرى، جاء في تفسير أضواء البيان إشارة نفيسة إلى هذا المعنى، يقول:((فإن لكل حالة يذكر معها الحال الذي يناسبها، فالقارعة من القرع، وهو الضرب ناسب أن يذكر معها ما يوهن قوى الإنسان إلى ضعف الفراش المبثوث، ويفكك ترابط الجبال إلى هباء العهن المنفوش)).[(٢)]

ومن خير من تحدث عن هذا التشبيه في بيان تمكنه في هذه السورة، ووجه اختصاص كل سورة بالتشبيه الذي جاء فيها الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى، فقد تحدث عن بلاغة القرآن وإعجازه في توظيفه لأسلوب التشبيه في بيان مقاصده، وإظهار أهدافه، يقول:((وقد عرض

---

(١) التفسير الكبير : ٣٢/ ٦٩

(٢) أضواء البيان: ٩/ ٤٥٨ .

القرآن في مواقف كثيرة لوصف أحوال يوم القيامة مصطنعاً التشبيه وسيلة كاشفة، من ذلك قوله – تعالى - ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾[1]، قلت: إن تصوير انتشار الخلق في هذا اليوم كثير جدا في كتاب الله، وهو في كل مرة يركز على جانب معين من جوانب الموقف الهائل، ويلقي عليه مزيداً من الأضواء، فهذا التصوير المذكور في سورة "القمر" يركز الضوء الكاشف على ما يتصفون به من استسلام وانقياد يظهر ذلك في الكناية ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ وكونهم عجلين مهطعين نحو من يدعو إلى شيء نكر.

وتجد سورة " القارعة" وهي تلخيص مركز لموقف هذا اليوم تذكر بعد ما تستفتح بهذا القرع المتلاحق ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾ وهذه النغمة الحاسمة كأنها توطئة لوصف أحوال الناس والجبال ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ التشبيه هنا يتناول الكثرة والانتشار على غير نظام، كما تناوله التشبيه هناك، ولكنه يسلط الأضواء على معنى التخاذل والضعف والوهن الذي يكون عليه الناس حين يخرجون من قبورهم في جو من الهول والخوف الساحق، التشبيه يصف أنهم تخاذلوا أشد التخاذل، وذهب كل ما فيهم من تماسك فصاروا

---

(١) سورة القمر.

كالفراش المبثوث، وهو مثل في الوهن والضعف، ويلاحظ أن الفراش وصف بالبث، والجراد وصف بالانتشار، والفرق بين البث والانتشار أن الانتشار فيه فضل تماسك لا يوجد في البث، ولذلك تقول: نشر عليه ثوبه، ولا تقول: بث عليه؛ البث كأنه يكون فيما تفرق، والمبثوث مفعول من " بث"، والمنتشر فاعل من " انتشر" فالبث وقع على الأول، والانتشار حدث من الثاني، هم في التشبيه الأول كالجراد الذي ينتشر بنفسه، وفي التشبيه الثاني كالفراش الذي يبثه غيره؛ لأنه لا فعل له، وهذا التشبيه لا يخلو من المعنى الذي ذكرناه هناك وهو التصرف غير المنتظم، والذي لا تكون فيه سيطرة على النفس؛ لأن الفراش يرد في كلام العرب مثلا على الخفة والحماقة والتهافت، ومن كلامهم: أطيش من فراشة، وحلمهم حلم الفراش غشين نار المصطلي، وانظر إلى تشبيه الجبال بالعهن المنفوش، وما فيه من دقة تظهر حين تدرك أن العهن - كما قال الزمخشري - الصوف المصبغ ألوانا، والمنفوش هو المتفرق الأجزاء، فكأن التشبيه هنا يركز على أمرين: الأول ما يكون من اختلاف الألوان في الجبال المتحللة وهي جدد مختلفة الألوان فلا تكون كالصوف المنفوش فحسب، وإنما تتراءى كالصوف المصبوغ الذي احتوى ألواناً شتى، والشيء الثاني هو الخفة، وصيرورة هذه الرواسي الثقال كأنها تلك القطع السابحة في الهواء».[1]

والمتأمل كذلك في التشبيه الوارد في سورة " القارعة" يجد أن تشبيه الجبال بالعهن زيد فيه لفظة " المنفوش" بخلاف التشبيه الوارد في سورة

(١) التصوير البياني: ٤٣ .

"المعارج" فلم ترد فيه هذه اللفظة، واكتُفي فيه بقوله: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ وممن تعرض لهذا المسألة، وأبان عنها خير إبانة الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي، مبيناً السرَّ في ذلك، وعلاقة كل تشبيه بالسورة التي ورد فيها، يقول: ((إنه لما ذكر القارعة في أول السورة، والقارعة من القرع، وهو الضرب بالعصا، ناسب ذلك ذكر النفش؛ لأن من طرائق نفش الصوف أن يُقرع بالمقرعة، كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تُهَشَّم بالمقراع، وهو من القرع، وهو فأس عظيم تُحطَّم به الحجارة، فناسب ذلك ذكر القارعة ذكر (الفراش المبثوث) في قوله ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ ﴾، أيضاً لأنك إذا قرعت طار الفراش وانتشر، ولم يحسن ذكر "الفراش" وحده كما لم يحسن ذكر "العهن" وحده))[1]، ومن الأسباب – أيضاً– أن((ما تقدم من ذكر اليوم الآخر في سورة "القارعة" أهول وأشد مما ذُكر في سورة "المعارج"، فقد قال في سورة المعارج ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾، وليس متفقاً على تفسير أن المراد بهذا اليوم هو اليوم الآخر، وإذا كان المقصود به اليوم الآخر فإنه لم يذكر إلا طول ذلك اليوم، وأنه تعرج الملائكة والروح فيه، في حين قال في سورة "القارعة" ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ١٩٨ .

﴿٣﴾ ﴾ فكرر ذكرها وعظمها وهولها، فناسب هذا التعظيم والتهويل أن يذكر أن الجبال تكون فيه كالعهن المنفوش، وكونها كالعهن المنفوش أعظم وأهول من أن تكون كالعهن من غير نفش كما هو ظاهر»[١]، كما أن «التوسع والتفصيل في ذكر القارعة حسّن ذكر الزيادة والتفصيل فيها، بخلاف الإجمال في سورة " المعارج"، فإنه لم يزد على أن يقول: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾» .[٢]

وقد جاء التشبيه بهذه الصورة، وبهذه الدلالة متوافقاً أتم التوافق مع الخصائص الأسلوبية للسور المكية، وبيان ذلك: إشارة مَن تحدث عن الخصائص الأسلوبية والبيانية للسور المكية: أنه يكثر في هذا العهد استخدام أسلوب التشبيه، وضرب الأمثال إذا ما قيس ذلك بالآيات المدنية[٣]، فالآيات في العهد المكي تكون« غنية بالتخيل الحسي، والتجسيم وخلع الحركة والحياة الحوار على الأشياء، وبخاصة حين يتحدث عن يوم القيامة، وأحداثه وما يتبعه من حوار بين أصحاب الجنة وأصحاب السعير»[٤]، كما ظهر هذا جلياً في سورة القارعة.

ولعل السرَّ في توافر هذه الأساليب البيانية: أن« القرآن الكريم كتاب دعوة، والدعوة تشق طريقها إلى القلوب بالإقناع والتأثير في النفوس،

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق: ١٩٩ .

(٣) انظر: علوم القرآن: ١٤٣، عدنان محمد زرزور.

(٤) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ١٩٩ .

ولكي يبلغ القرآن هذه الغاية نراه يضرب في النفس على أوتار متعددة ليصل إلى قرارها، وموضع التأثير، والإقناع فيها، والأساليب متفاوتة في قدرتها على احتواء المشاعر الوجدانية، تعبيراً عنها، وإثارة لها، فكان طبيعياً أن يؤثر القرآن منها الأقدر على هذه المهمة، ويكثر من استخدامها؛ لأنها المناسبة للغرض، الموافقة لمقتضى الحال» . [1]

وثمة ملحظ آخر في هذا التشبيه: أنه مستمد من الطبيعة نفسها: من مكوِّناتها وأجزائها، فقد تم توظيف البيئة المكية، وما تتميز به من الجبال والصلابة في هذه التشبيهات، وفي ضرب الأمثال لهم؛ لعلهم يتذكرون، وهذه حقيقة مقررة في التشبيهات القرآنية في العهد المكي، وقد أشار إلى هذه الحقيقة وقررها كثير ممن كتب عن بلاغة التشبيه وأسراره في القرآن الكريم، وفي العهد المكي منه [2]، وممن أشار إلى هذا الأمر، وأشاد به الأستاذ أحمد بدوي، يقول: « أول ما يسترعي النظر من خصائص التشبيه في القرآن أنه يستمد عناصره من الطبيعة، وذلك هو سرُّ خلوده، فهو باقٍ ما بقيت هذه الطبيعة، وسرُّ عمومه للناس جميعاً يؤثر فيهم؛ لأنهم يدركون عناصره، ويرونها قريبة منهم، ومن أيديهم، فلا تجد في القرآن تشبيهاً مصنوعاً يدرك جماله فرد دون آخر، ويتأثر به إنسان دون إنسان» [3] .

---

(١) أسلوب الدعوة القرآنية: ٣٢٥ .

(٢) ومن هؤلاء: أحمد بدوي، في كتابه: من بلاغة القرآن: ١٩٦، و: عبد العظيم المطعني في كتابه: خصائص التعبير القرآني: ٢/ ٢٨٠، و: عدنان محمد زرزور في كتابه: علوم القرآن: ٣٢٠، وغيرهم.

(٣) من بلاغة القرآن: ١٩٦ .

ومن هنا فقد تم في هذه السورة توظيف الجبال والحديث عنها في بيان مصيرها يوم القيامة، للدلالة على شدة أهوالها، وعِظم المصير الذي ينتظرهم، فهذا التشبيه منتزع من صميم البيئة التي عاش فيها أهل مكة، فالجبال أمام أعينهم، تتراءى أمامهم حيثما حلوا وارتحلوا، فقد ألف أهل مكة رؤية الجبال ومشاهدتها، فهي تحيط بهم من كل جانب ، ولذا فهم يدركون بلاغة هذا التشبيه وغاياته، كما يدركون – كذلك – ما تتميز به هذه الجبال من القوة والصلابة، ومن هنا يتضح مدى توظيف الطبيعة ومكوناتها في مخاطبة أهل مكة، ولذا كانت هذه السورة نموذجاً لخصائص الخطاب في العهد المكي، وما تميزت به من خصائص أسلوبية تجلت في سورة القارعة، وقد تم توظيف هذه الخصائص في دعوة القوم، وفي إثبات يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ولذا ومن خلال ما تقدم تتبين لنا بلاغة القرآن الكريم في كونه ((يستثمر أقصى ما في هذه الأداة من إمكانات، عن طريق ملاءمته الدقيقة بين المشبه والمشبه به من ناحية، وعن طريق تفصيل جوانب التقابل بينهما – كلما لزم – من ناحية أخرى، ومن ثم فإن المثل الذي يضربه لا يقدم لنا صورة جزئية محدودة، وإنما يقدم مشهداً فسيحاً متكاملاً لا يمل النظر منه، ولا من تأمل العلاقات العميقة التي تربط بين جميع جوانبه)) .[١]

وبعد أن ذكر – سبحانه – أهوال القيامة والأحداث التي يكون فيها،

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ١١٧

وحال الناس والجبال فيها، بعد أن ذكر ذلك مبهماً؛ بغية التفخيم والتعظيم والتهويل، ذكر بعد ذلك كله انقسام الناس فيه قسمين أشار إليه بقوله ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ ولذا فهذه الآيات «بيان إجمالي لتحزب الناس إلى حزبين، وتنبيه على كيفية الأحوال الخاصة بكل فريق منهما إثر بيان الأحوال الشاملة للكل، وتوضع في الميزان صحائف الأعمال، فينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة، وقطعاً للمعذرة» .[1]

ولعل السرَّ في وزن الأعمال في هذا الجمع الحاشد هو: « ظهور حال صاحب الحسنات في الجمع العظيم فيزداد سروراً، وظهور صاحب السيئات فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق» .[2]

وفي جمع لفظة " موازينه" إشارة إلى تعدد الأعمال وتنوعها، فبسبب هذه الكثرة، وذلك التنوع ثقلت ورجحت[3]؛ إشارة – كذلك إلى ثقل هذه الحسنات، وعِظم قدرها عند الله – سبحانه وتعالى –، والمراد بالموازين موازين الحسنات، بأن رجحت حسناته على سيئاته.[4]

وأما عاقبة مَن ثقلت موازينه وجزاؤه ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ

(١) إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩٣

(٢) التفسير الكبير: ٣٢/ ٧٠ .

(٣) انظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٥١٧ .

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٧٧ .

﴿٧﴾ وقد جاء حرف الجر " في" بدلالته على الظرفية والوعاء ليدل على عظم هذا النعيم الذي يعيشه المؤمن في الجنة، ففيها استعارة تبعية بالحروف، فقد استُعيرت الظرفية - التي هي ارتباط حاصل بين الظرف والمظروف – لتلذذ هؤلاء المؤمنين الذين ثقلت موازينهم بجامع الإحاطة والاحتواء، ودُلَّ على هذه الاستعارة بحرف الجر " في" بدلالته على الظرفية، وتكمن بلاغة هذه الاستعارة في هذا المقام: أن فيها تصويراً لشدة تمكن المؤمنين من هذا النعيم، وأنه قد أحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم، والظرف بمظروفه.

وإذا كان هذا حالهم، وذلك نعيمهم فلا غرو أن ترضا معيشتهم عنهم، ويرضوا عنها، وقد تم التعبير عن هذه المعاني والدلالة عليها بقوله ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾، فقد تم الحديث عن النعيم الذي يتقلب فيه المؤمنون بلفظة ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾، وقد جاءت لفظة " عيشة" مفردة؛ إشارة إلى ثبات هذه الحالة، وعدم تغيرها وتبدلها، فهي حالة واحدة من الصفاء والنعيم واللذة، والحبور والسرور، فبسبب ثباتها، وعدم زوالها صارت كأنها واحدة لا ثاني لها، بخلاف العيش في الدنيا فإنها متغيرة متقلبة بين النعيم والشقاء، والحزن والسرور، والزيادة والنقصان، والصحة والمرض.[١]

وقد تضمن قوله ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ مجازاً، فهو مجاز عقلي

(١) انظر: نظم الدرر: ٢٢/ ٢٢٣ .

بالإسناد، وعلاقته المفعولية؛ إذ العيشة مرضية لا راضية، إذ الأصل: في عيشة رضي صاحبها بها[١]، ولكن تم إسناد الرضا إلى العيشة؛ لتلبسه بها؛ بسبب وقوعه عليها [٢]، وثمة أسرار بلاغية تكمن خلف هذا التعبير يراد تحقيقها والتأكيد عليها، فقد جاء هذا المجاز؛ ليدل على أن ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ ﴾« فاعلة الرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها، فالفعل للعيشة؛ لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد، فالعيشة كلمة تجمع النعيم الذي في الجنة، فهي فاعلة الرضا، كالفرش المرفوعة... فهذه الأشياء كلها قد أعطت الرضا من نفسها، فهي فاعلة الرضا ، وهي انذلت وانقادت بذلا وسماحة »[٣]، إذن فالعيشة هي التي ترضا، وهي التي تدنو، فهي بحق راضية مرضية، كما أنها « طائعة لينة لأصحاب الجنة، فتفجر لهم الأنهار طواعية، وتدنو لهم الثمار طواعية» .[٤]

وممن وقف مع هذا الأسلوب، وذكر أسراره البلاغية الدكتور بسيوني فيود، يقول:« ويفيد هذا التجوز المبالغة في النعيم الذي أعده الله – تعالى –

---

(١)وثمة أقوال أخرى في معنى (عيشة راضية) أشار إليها العكبري في تفسيره، يقول: " وراضية على ثلاثة أوجه: أحدها بمعنى مرضية، مثل دافق بمعنى مدفوق، والثاني: على النسب أي ذات رضا، مثل: لابن وتامر، والثالث: هو على بابها، وكأن العيشة قد رضت بمحلها وحصولها في مستحقها، أو أنها لا حال أكمل من حالها فهو مجاز" التبيان في إعراب القرآن: ٢٦٨ .

(٢)انظر: علم المعاني: ٥٦، للدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٦٦

(٤) أضواء البيان: ٩/ ٤١٦ .

للمؤمنين في الجنة، فرضوا به، وسعدوا إلى درجة أن العيشة أصبحت راضية بصاحبها تألفه ويألفها، وتحبه ويحبها، فهي عيشة دائمة باقية؛ لأنها مبنية على الألفة والمحبة، ولو كانت مبنية على التنافر ما دامت، وتأمل التعبيرين: المؤمن في عيشة راضية، والكافر في عيشة نافرة، تجد أن التجوز في الأول ينبئ بالدوام والبقاء؛ حيث الرضا والألفة، أما التجوز الثاني فينبئ بالفرقة والابتعاد، حيث النفور والكراهية)) .[١]

وإن في هذا الأسلوب لمزيداً للمستزيدين، ونظراً للمتأملين، ولذا فيعد قوله ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ من إيجاز القِصر؛ لما تضمنه من الدلالات، والكثير من المعاني، ولكنها اختصرتْ هذا النعيم كله، وأوجزته بأقصر عبارة في قوله ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾، وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن في الآية إيجازاً، ومن ذلك القرطبي، وقد سبقت الإشارة إلى كلامه، وذلك حين قال: ((فالعيشة كلمة تجمع النعيم الذي في الجنة))[٢]، وفي تفسير أضواء البيان قوله: ((كلمة العيشة جامعة لنعيم الجنة، وأسباب النعيم))[٣]، وكذلك سيد قطب، فقد أدرك ما فيها من إيجاز، وقد أشار إليه بقوله: ((﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ ويدعها مجملة بلا تفصيل، توقع في الحس ظلال الرضا، وهو أروح النعيم)) .[٤]

(١) علم المعاني: ٥٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٦٦

(٣) أضواء البيان: ٩/ ٤١٦ .

(٤) في ظلال القرآن: ٦/ ١٩٦٣ .

ثم ذكر – سبحانه – القسم الآخر، وبيَّن حالهم في الآخرة، والمآل الذي يؤولون إليه، والقرار الذي يصيرون إليه في قوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ ومعنى ﴿ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي خف وزن حسناته، فرجحت سيئاته على حسناته [١]، أو لم يكن له حسنات يعتد بها [٢]، إذن فهذا سبب خفة موازينهم وطيشها، يدل على ذلك قول أبي بكر – رضي الله عنه –: «وإنما خفت موازين من خفت باتباعهم الباطل في الدنيا، وخفتهم عليهم، وحُق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً» . [٣]

ثم أعقب – سبحانه – ذلك ببيان مصيرهم والجزاء الذي ينتظرهم في قوله ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾، وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان المراد في قوله ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ وهذه الأقوال وإن تعددت إلا أنها تلتقي في الدلالة على سوء المصير، وشدة الحال لهذا الذي خفت موازينه، فقيل: إن المراد بالهاوية: النار، فهي من أسماء جهنم [٤]، فالنار هي أمه ومأواه التي يرجع إليها، ويأوي إليها، والمعنى: أن مأواه ومسكنه هي الهاوية التي يهوي فيها على رأسه في نار جهنم. [٥]

---

(١) انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٦، و: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٧٧ .
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩٤ .
(٣) التفسير البسيط: ٢٤/ ٢٦٦ .
(٤) انظر: معالم التنزيل: ٤/ ٥١٩ .
(٥) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٦

وفي لفظة " هاوية" إشارة إلى شدة عمقها، وبعد مهواها، وأن قعرها شديد لا يُدرك[١]، ولذا فيظل يهوي فيها دون أن يصل إلى قرارها ومنتهاها، ومن هنا سُميت بالهاوية، والمراد بها: ((النار العميقة؛ لهويّ أهل النار فيها مهوى بعيداً))[٢]، ومن هنا جاءت لفظة " هاوية"؛ لتدل على هذا المعنى وتؤكده، ولتبين أنها نار نازلة سافلة لا يزال يهوي فيها نزولاً، وكذلك أهل النار يهوون في نار جهنم سبعين خريفاً[٣]، يؤيد ذلك حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: (كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: تدرون ماهذه؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرها). [٤]

ولذا فإن في لفظة "هاوية" ومعناها بياناً لهلاكه، وشدة خسرانه؛ وذلك أنه إذا هوى سقط وهلك.[٥]

إذن فالهاوية هي النار، وقد تم التعبير بها؛ للدلالة على شدة المآل، وشدة العذاب الذي ينتظرهم، وهو استعمال معروف لدى العرب، كما أنها ((كلمة عربية كأن الرجل إذا وقع في أمر شديد قال: هوت أمه)) . [٦]

(١) انظر: معالم التنزيل: ٤/ ٥١٩ .

(٢) الكشاف: ٤/ ٢٨٠ .

(٣) انظر: روح المعاني: ١٥/ ٤٤٩.

(٤) صحيح مسلم: رقم الحديث: ٢٨٤٤، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم، وبعد قهرها، وما تأخذ من المعذبين.

(٥) انظر: الكشاف: ٤/ ٢٨٠ .

(٦) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٦ .

فالهاوية هي النار، فهي اسم من أسمائها، ودركة من دركاتها، بل ((هي أسفل دركات النار عياذاً بالله)) [1]، كما يقال للأرض أم الناس؛ لأنها تؤويهم، ((وكذلك النار مأوى الكافرين في الآخرة؛ لأنها مأواهم ومصيرهم)) . [2]

وقد ذكر المفسرون كثيراً من الأقوال في بلاغة تشبيه المأوى بالأم في قوله ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ فقيل: إن المراد بذلك أن الهاوية ستكون مصيره ومسكنه؛ إشارة لكون الأمهات سكناً ومأوى لأبنائهم [3]، يدل على ذلك قول أبي السعود: ((وعُبر عن المأوى بالأم؛ لأن أهلها يأوون إليها، كما يأوي الولد إلى أمه))[4]، وفي ذلك إشارة – أيضاً -: لكون هذه النار تهوي بهم، وتضمهم إليها كما تضم الأم أولادها إلى صدرها، وأنهم يلتجئون ويفزعون إليها .[5]

ومن دلائل هذا التشبيه وأسراره: أن فيه إشارة إلى تمكن هذه النار منهم، وإحاطتها بهم كما يحيط رحم الأم بولدها، وأنهم منغمسون فيها لا فكاك لهم منها[6]، ومن هنا جاء هذا التشبيه؛ ليبين ((حال من خفت

---

(١) أضواء البيان: ٩/ ٤٦٤ .

(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٥١٧ .

(٣) انظر: معالم التنزيل: ٤/ ٥١٩ .

(٤) إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩٤ .

(٥) انظر: حاشية زادة على تفسير البيضاوي: ٤/ ٦٨٩ .

(٦) انظر: روح المعاني: ١٥/ ٤٤٩ .

موازينه يومئذ بحال الهالك في الدنيا؛ لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه في الخير والشر؛ لشدة محبتها لابنها، فهي أشد سروراً بسروره، وأشد حزناً بما يحزنه».[١]

إذن فهذه النار بهذه الشدة، وبتلك الحرارة ستكون« أم الذي خفت موازينه، أمه التي يفيء إليها ويأوي، والأم عندنا الأمن والراحة، فماذا هو واجد عند أمه هذه الهاوية، النار الحامية إنها مفاجأة تعبيرية، تمثل الحقيقة القاسية» .[٢]

ولا يخفى أن هذا التشبيه تهكم بهم، وعذاب لهم فوق عذاب، ففي هذا التعبير تهكم بهم وسخرية؛ بأن جُعلت النار لهم أماً يأوون إليها، كما أن الأم تأوي إليها ابنها [٣]، وقد أشار سيد قطب إلى هذا المعنى في قوله « والأم هي مرجع الطفل، وملاذه، فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هي الهاوية، وفي التعبير أناقة ظاهرة، وتنسيق خاص، وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده، يزيد في عمق الأثر المقصود» .[٤]

وهذه الهاوية، وتلك أوصافها، وذاك هولها، وشدة أثرها، ولذا فإنها وهذه أوصافها مما لا تدركه العقول، ولا تحيط بها الظنون، « ولما كانت مما

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٣٩٦١ .

(٣) انظر: معاني القرآن: ٣/ ٢٨٧، للفراء و: محاسن التأويل: ١٧/ ٦٢٤٤، وروح المعاني: ١٥/ ٤٤٩ .

(٤) في ظلال القرآن: ٥/ ٣٩٦١ .

يفوت الوصف بعظم أهوالها، وشديد زلزالها جمع الأمر فيها منكراً أن يكون مخلوق يعرف وصفها»[1]، ولذا جاء قوله ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، وقد أفاد الاستفهام في قوله ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ ﴾ معنى التعظيم، والتهويل لشأنها، والتفظيع لهولها[2]، فإذا كانت كذلك فأنى للعقول أن تحيط بها، والقلوب أن تدري ما هي، وفي هذا الاستفهام إشارة إلى هذه المعاني، ودلالة عليها، ففيه إشارة إلى أنها خارجة عن المعهود، بحيث لا تحيط بها علوم البشر، ولا تدرك كنهها[3]، كما تضمن الاستفهام « سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن؛ لإخراج الأمر عن حدود التصور، وحيز الإدراك» .[4]

إذن فهذه هي الهاوية، وذاك شديد هولها، وفظيع أمرها، وهو هول لا يدرك، وإنما يوقف فيه إلى العلم، ويُنتهى فيه إلى السماع؛ وكأن في هاء السكت في قوله ﴿ مَا هِيَهۡ ۝١٠ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه من طرف خفي؛ وذلك أن فيه « إشارة إلى أن ذكرها مما يكرب القلب، حتى لا يقدر على الاسترسال في الكلام، أو إلى أنها مما ينبغي للسامع أن يقرع بهذا الاستفهام سمعه، فيسكت لسماع الجواب وفهمه غاية السكوت، ويصغي

(١) نظم الدرر: ٢٢/ ٢٢٤ .

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ٥/ ٤٥٠.

(٣) انظر: فتح القدير: ٥/ ٤٨٧ .

(٤) في ظلال القرآن: ٥/ ٣٩٦١ .

غاية الإصغاء)) . [١]

جاء السكت في قوله ﴿ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ ﴾ لينهي الحديث عنها؛ لأنه مما لا يمكن للبشر معرفته، ولا الإحاطة بها، فالمقام هنا مقام سكوت وإصغاء لما سيأتي بعدها من بيان حالها، وإيضاح لأمرها، ولذا جاء بيانها، وإيضاح أمرها في قوله ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ فإن قوله ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ بيان لها، وإخبار عنها، فلفظة " نارٌ" خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هي نار[٢]، والمعنى: أن الهاوية هي نار حامية، وقد جاءت لفظة " نارٌ" نكرة؛ للتعظيم، إشارة إلى عِظم أمرها، وشديد حرها، وشدة حراراتها، فقد بلغت الغاية في الحرارة؛ حتى صارت حامية من شدة الوقود عليها وكثرته. [٣]

أفاد التنكير بهذه الدلالة:((أن سائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حامية، وهذا القدر كافٍ في التنبيه على قوة سخونتها، نعوذ بالله منها ومن جميع أنواع العذاب)) . [٤]

تم تأكيد هذه المعاني كلها وتقريرها بلفظة " حامية" حين جاءت وصفاً للنار، فهي((من قبيل التوكيد اللفظي؛ لأن النار لا تخلو من الحَمْي، فوصفها به وصف بما هو من معنى لفظ "نار"، فكان كذكر المرادف، كقوله

---

(١) نظم الدرر: ٢٢/ ٢٢٤.

(٢) التبيان في إعراب القرآن: ٢٩٣ .

(٣) انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٦ .

(٤) التفسير الكبير: ٣٢/ ٧٢ .

﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾[1]) . [2]

وكذا تضافر التنكير والوصف بها توافر في كل واحد منهما في الدلالة على شدة هذه النار، والإشارة إلى أنه قد انتهى حرها، وبلغت الغاية في الشدة والحرارة، وقد جاء مصداق ذلك في قوله – عليه الصلاة والسلام – في بيان شدة نار الآخرة، ومفارقتها لنار الدنيا بأنها زيدت((على حرارة الدنيا بسبعين ضعفاً، نستجير بالله منها)) . [3]

يدل على ذلك ويؤكده، حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية يارسول الله، قال: فإنها فُضِّلتْ عليها بتسعة وستين جزءاً، كلها مثل حرها) [4]

وقد تضمن قوله ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ فناً بديعياً، وهي المقابلة بين فريقين، فريق ثقلت موازينه، ورجحت حسناتهم، فكان عاقبة أمرهم حميداً، فآلوا إلى نعيم دائم، وعيشة راضية مرضية، وفريق آخر رجحت بهم سيئاتهم

---

(١) الهمزة: ٦ .

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٥ .

(٣) السعدي: ٥/ ٤٥٠ .

(٤) صحيح مسلم: رقم الحديث: ٢٨٤٣، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم، وبعد قهرها، وما تأخذ من المعذبين.

فصاروا إلى الجحيم يهوون فيها، ويصطلون بنار حامية، وقد تم توظيف هذه المقابلة للإشارة إلى انقسام الناس في الآخرة قسمين، ولذا فإن المقابلة في هذه الآيات ظاهرة جلية، كيف لا وقد عرضت مشهدين متقابلين لمصير كل فريق من هذين الفريقين، إذن فقد تمايزت الأمور، وعلى العاقل الرشيد أن يختار قراره ومصيره، ومن هنا يتبين كيف تم توظيف هذا الأسلوب البلاغي في التأثير في المخاطبين، ولذا فقد كان هذا الأسلوب البلاغي وسيلة بلاغية ناجحة في الحديث عن اليوم الآخر، وانقسام الناس فيه، والإشارة إلى التباين التام لكل فريق، عسى أن يكون لهذا الأسلوب أثر في نفوس المخاطبين في العهد المكي، وأن يكون دافعاً لهم للإقبال على الإيمان، وعلى القرآن، وأن ينفكوا عما هم فيه من الكفر والإعراض، وإلا فليختاروا مصيرهم، وليحددوا جزاءهم في الآخرة، فإن الجزاء من جنس العمل، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

ومن تأمل سورة القارعة يجد أنها تضمنت كثيراً من الخصائص الأسلوبية التي تميز بها العهد المكي، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن هذه السورة قائمة على الوعيد والتهديد، وعلى الإنذار، وقد ذكر هذا الأمر، وأشار إليه الطاهر بن عاشور، فبين أنه تم في هذه السورة « تهويل شديد بثمانية طرق، وهي: الابتداء باسم القارعة المؤذن بأمر عظيم، والاستفهام المستعمل في التهويل، والإظهار في مقام الإضمار أول مرة، والاستفهام عما ينبئ بكنه القارعة، وتوجيه الخطاب إلى غير معين، والإظهار في مقام الإضمار ثاني مرة، والتوقيف بزمن مجهول حصوله، وتعريف ذلك الوقت

بأحوال مهولة » .[1]

بل إن ذكر القارعة وتكرارها في افتتاح هذه السورة مراد منه التهويل والإنذار، والتحذير لهم، فقد تضمنت لفظة " القارعة" هذه المعاني، ودلت عليها، يدل على ذلك قول الزجاج: يقول في قوله ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ ﴾ يقول: « " ما" مبتدأ، والقارعة خبره، وهو تحذير، والعرب تحذر، وتغري بالرفع والنصب » .[2]

كما أن ذكر أحوال الناس والجبال، وما يحدث لهما في ذلك اليوم غرضه – كذلك – التهويل والإنذار، يدل على ذلك قول الطاهر بن عاشور: يقول في تفسير قوله ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ « والمقصود بهذا التوقيت زيادة التهويل بما أضيف إليه " يوم" من الجملتين المفيدتين أحوالاً هائلة » .[3]

ومن يتأمل السور المكية يجد فيها توافر أساليب الوعيد والزجر والتهديد، وهذا هو المتلائم مع نفوس كذبت وكفرت بآيات ربها ورسله، وفي هذا مطابقة لأحوال المخاطبين بهذه الآيات، وموافقة -كذلك- لطبيعة الدعوة في هذه المرحلة، وبيان لطبيعة هذه النفوس التي خُوطبت بهذه الآيات.

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٢

(٢) البحر المحيط: ٨/ ٥٠٣

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١١

ولا يخفى أن في هذا الإنذار زجراً لهم، وقرعاً لمسامعهم، فهم بحاجة إلى ما يقرع مسامعهم، ويهز وجدانهم، وينذرهم ويخوفهم بالوعيد والتهديد، وحسبك بالقارعة وأهوالها زاجراً ورادعا، فعسى أن يقلعوا عما فيه من التكذيب والإعراض، ومن هنا جاءت هذه السورة بهذه الخصائص بياناً لحال هؤلاء القوم، وذكراً لموفقهم من الرسالة وصاحبها، وبياناً – كذلك – للخطب المحدق بهم، والخطر المحيط بهم إن استمروا على كفرهم وإعراضهم، وإلا فلينظروا الساعة، فالساعة أدهى وأمر.

ومما يدل على هذا الأمر ويؤكده: أن الحديث عن نعيم المؤمنين في هذه السورة جاء مقتضباً موجزاً في قوله ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾، وقد سبقت الإشارة إلى الإيجاز الذي تضمنه قوله ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ وكلام العلماء في ذلك، بخلاف الحديث عن أهوال يوم القيامة، والحديث عن مصير من خفت موازينه، فقد جاء ذلك مطولاً، وتكاد السورة كلها تكون حديثاً عن الأمر، بدءاً من قوله ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾

ولا يخفى أن في ذلك توافقاً مع خصائص الخطاب في العهد المكي، كما أنه توافق – كذلك – مع طبيعة هذه النفوس التي خُوطبت بهذه الآيات، وما جُبلت عليه من العناد والكفر والإعراض، ولذا فإن ظهور

التحذير والإنذار والوعيد في هذه السور المكية إشارة إلى ما تميز به القرآن الكريم من كونه« يراعي الطبيعة البشرية، وما جُبلت عليه من ميول، ويتحرى أن يصل إلى النفس البشرية من منافذ التأثير فيها، فأسلوب الترهيب يتخذ طريقه إلى النفس من خلال ما رُكب فيها من غريزة الخوف التي تدفع الإنسان إلى توقي الخطر، والبعد عما يعرضه له » . [1]

ومن الخصائص الأسلوبية التي تجلت في هذه السورة: التفصيل بعد الإجمال، والبيان بعد الإبهام، ويعد هذا الأسلوب من وسائل التشويق والإثارة والتنبيه، كما أنه وسيلة من وسائل تثبيت المعاني وتقريرها في النفوس أفضل تمكن، فإذا استقرت في أعماقها فإنه لا يفارقها حتى يحدث أثراً فيها ولا بد، وذلكم هو المراد من هذه الآيات، ومن هنا فقد جاء هذا الأسلوب وفاء لمقام البلاغة، ومراعاة لأحوال المخاطبين بهذه السورة، الذين عاشوا في هذه الحقبة الزمنية المهمة من زمن الدعوة الإسلامية، تلك خاصية من خصائص القرآن الكريم، ولذا فهي« تمنحه قدرة على التأثير في النفس وتهيئتها لقبول المعنى، لتضمنه كثيراً من وسائل التشويق والإثارة التي تقوم بدورها في تمكين المعاني في النفوس، بإثارة تطلعها إلى معرفة الخبر، أو جلاء ما به من إبهام، أو تفصيل ما به من إجمال، فإذا ورد المعنى بعد هذه الإثارة أنست إليه النفس، وتمكن فيها بعد أن سبقه إليها رسول مهد له موطناً مكينا» . [2]

(١) أسلوب الدعوة القرآنية: ١١١ .

(٢) المصدر السابق: ٣٢٨ .

الخاتمة:

وبعد هذا التطواف الماتع مع هذه السورة المباركة، وبعد هذه الصحبة الطيبة لهذه الآيات الكريمات أصل إلى نهاية هذا التطواف، وغاية هذا البحث، فلكل بداية نهاية، ولكل عمل غاية، فعسى أن أكون حققتُ الغاية التي كنتُ أرنو الوصول إليها، والوقوف عندها، وثمة نتائج أمكن الاهتداء إليها، والخروج بها من خلال هذه الدراسة، ومن أهمها ما يأتي:

أولاً: أن معرفة المكي والمدني تجعلنا ندرك الفروق الأسلوبية، والخصائص الموضوعية والتعبيرية للقرآن الكريم، ومن ثم الإفادة من هذا المبحث في الدعوة إلى الله، وذلك أن هذا المبحث يُعطي الدارس المنهج في طريقة التعامل مع الناس على اختلاف أجناسهم، وتعدد مشاربهم وتنوعها، ومن ثم يأتي الخطاب في كل الظروف والأحوال متلائماً مع مقتضيات الأحوال، مراعياً لها، وهل البلاغة إلاَّ هذه؟!

ثانياً: تجلتْ في سورة القارعة كثير من الخصائص الموضوعية والأسلوبية للسور في العهد المكي، وقد جاءت تلك الخصائص منبثقة من واقع أولئك الأقوام، ومنطلقة منه، ومن ثَم كانت هذه الخصائص مرآة تعكس حال القوم، وتبين ما هم عليه من الكفر والتكذيب والإعراض.

ثالثاً: تُعدُّ سورة القارعة من أوسط السور التي نزلت في العهد المكي، ولذا فقد توافر فيها كثير من الخصائص الموضوعية والأسلوبية للعهد المكي، وقد كشفتْ هذه الدراسة كثيراً من هذه الخصائص، وقد تم الوقوف معها؛ لبيان سرِّ توافرها، ودلالاتها في هذه السورة.

رابعاً: تكاد تكون سورة القارعة كلها من أولها حتى آخرها نموذجاً لما تتميز بها السور المكية في خصائصها الأسلوبية، فقد توافر فيها: أسلوب التكرار، وأساليب التهديد والزجر والوعيد، كذلك شدة ألفاظها، ولهجة خطابها، وشدة قرعها وزجرها، وحسبك دلالة على ذلك ورود لفظة "القارعة" فيها وتكرارها ثلاث مرات، ولا تخفى دلالة هذه اللفظة، وقوة وقعها، وشدة زجرها، وقد تم توظيف هذه الخصائص كلها في مخاطبة المشركين، ودعوتهم إلى الله، وإثبات يوم القيامة، والحساب بالعدل والميزان.

خامساً: تُعدُ هذه الخصائص الأسلوبية في سورة القارعة وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي تميز به أسلوب القرآن الكريم عن أساليب العرب قاطبة، بل البشر جميعاً، فقد تعددت هذه الخصائص الأسلوبية وتنوعت تنوعاً يلائم طبيعة الموضوعات التي تم الحديث عنها في هذه الفترة، ويلائم – كذلك – طبيعة الأحوال والأجواء التي تنزلت فيها هذه السورة من حيث المخاطبون بها، والظروف التي تعيشها الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت.

سادساً: تكاد تكون سورة القارعة كلها قائمة على الوعيد والتهديد والإنذار، فقد توافر فيها كثير من الأساليب الدالة على هذا الغرض، ومن ثم توظيف هذه الأساليب جميعاً في إبراز هذا الغرض وتحقيقه، ولذا فإن قيام هذه السورة على الوعيد والإنذار والتهديد في ذلك مطابقة لأحوال المخاطبين بهذه السورة، وكشف لطبيعة تلك النفوس التي خُوطبت بهذه

السورة، فلعلهم إن تأملوا هذا الوعيد والتهديد أن يقودهم ذلك إلى التصديق والإيمان، فيكون ذلك سبباً في إيمانهم وهدايتهم، وذلكم هو المراد، وإلا فقد قامت عليهم الحجة، ولكن حال دون إيمانهم وتصديقهم الكفر والإعراض، والعناد، وصدق الله ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر: ٥]

وأدعو في خاتمة هذا البحث إلى مزيد من الدراسات البلاغية التي تعنى بالمكي والمدني في القرآن الكريم، لبيان كيف جاءت آيات هذين العهدين متوافقة مع طبيعة المجتمع الذي تنزلت فيه تلك الآيات، إذ يتجلى في مبحث المكي والمدني مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهذه هي البلاغة بعينها.

كما أننا بحاجة إلى مزيد من الدراسات التطبيقية في هذا المجال، وتوظيف ما توافر لدينا من علم علمائنا في دراسات تطبيقية تحليلية تبرز هذا المبحث، وتبرز – كذلك – بلاغة القرآن الكريم.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات.

مصادر البحث ومراجعه

- إتقان البرهان في علوم القرآن، للدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ـ ت).
- أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا، للدكتور عبدالغني محمد بركة، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ ١٩٨٣م .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٣هـ
- الإيضاح، للخطيب القزويني، دار إحياء الكتب الإسلامية، بيروت، (د ـ ت) .
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي دارسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ على محمد معوض، ود. زكريا عبدالمجيد النوني، ود. أحمد النحولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .
- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث .
- تأملات قرآنية : بحث منهجي في علوم القرآن الكريم، موسى بن إبراهيم الإبراهيم، الناشر : دار عمار، ط الأولى : ١٤٠٩ هـ .
- التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور،(د ـ ت).
- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د. محمد محمد

أبوموسى، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الرابعة: ١٤١٨ هـ .
- التعبير الفني في القرآن، للدكتور بكري شيخ أمين، دار الشروق، مصر، القاهرة، الطبعة السادسة: ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .
- التفسير البسيط، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق د. نورة بنت عبدالله الورثان، أشرف على طباعته وإخراجه: الدكتور عبدالعزيز بن سطام آل سعود، والأستاذ الدكتور تركي بن سهو العتيبي، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م
- ١٤ـ تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي البيان، لابن جرير الطبري، تحقيق الدكتور عبدالله التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، اعتنى به وصححه الشيخ هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض،١٤٢٣هـ .
- حاشية زادة على تفسير البيضاوي، لمحيي الدين شيخ زادة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ـ ت).
- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، دار صادر بيروت، (د ـ ت).

- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية،د. عبدالعظيم إبراهيم مطعني، مكتبة وهبة القاهرة، ط: ١: ١٤١٣ هـ .
- دراسات في علوم القرآن، د. عبدالقهار داود العاني، مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الأولى: ١٩٧٢م
- دراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد بن عبدالرحمن الرومي، مكتبة التوبة، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ .
- دراسات في القرآن والحديث، د. يوسف خليف، الناشر: مكتبة غريب القاهرة .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، ضبطه وصححه علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية: ٢٠٠٥م – ١٤٢٦هـ
- صحيح البخاري، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م .
- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
- علوم القرآن الكريم، د. عبدالمنعم نمر، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية : ١٤٠٣ هـ.
- علوم القرآن: مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، للدكتور عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى:

١٤٠١هـ - ١٩٨٠م
- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني،د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط:١، : ١٤١٩هـ
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ .
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، الطبعة: الثانية عشرة: ١٤٠٦هـ .
- كتاب الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، لبنان، (د.ت).
- الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ .
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، للدكتور فضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، الأردن، (د.ت).
- مباحث في علوم القرآن، د.مناع القطان، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثامنة عشرة: ١٤١٢هـ.
- المثاني القرآنية: دراسة في مفهوم التكرار وأسراره في القرآن، للدكتور السيد عبدالمقصود جعفر، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣ م .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي،

تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ

- معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ .
- معاني القرآن، لأبي زكريا يحي بن زياد للفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد على النجار، ود. عبدالفتاح شلبي، وعلى النجدي ناسف، دار السرور، (د ـ ت).
- مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني، د. السيد عبدالمقصود جعفر، دار الطباعة والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤١٣ هـ .
- المكي والمدني في القرآن ، د. محمد بن عبدالرحمن الشايع، الطبعة الأولى: ١٤١٨ هـ .
- مناهل العرفان في علوم القرآن: للدكتور محمد عبدالعظيم الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦ م .
- من بلاغة القرآن، للدكتور أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة، (د ـ ت).
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٤١٣هـ .

نبذة مختصرة عن بحث
خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة

بدأت الدراسة بمقدمة بينتُ فيها أهمية الدراسات البلاغية التطبيقية للقرآن الكريم، مشيراً إلى أن هذا البحث يُعنى بالجانب التطبيقي لعلم المكي والمدني في القرآن الكريم، وأنه – كذلك – سينطلق من النص نفسه، ومن هنا تتجلى أهمية هذه الدراسة؛ في كونها دراسة تطبيقية، وهذه هي الإفادة الكاملة في نظري من جهود علمائنا في هذا المجال، وتوظيفه في مثل هذه الدراسات، ثم بينتُ أهمية الموضوع، وأسبابَ اختياره.

وقد جاء هذا البحث في مبحثين، الأول: بعنوان: وقفات تأملية مع مبحث المكي والمدني، ذكرتُ فيه خمس وقفات متعلقة بموضوع الدراسة،كانت توطئة للمبحث الثاني، الذي كان بعنوان: خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة، الذي هو لبُّ هذه الدراسة، ثم ختمتُ الدراسة بخاتمة اشتملتْ على أبرز النتائج التي خرجتُ بها، ثم ذيلتُ هذا البحث بثبت للمصادر والمراجع التي تم الرجوع إليها، والإفادة منها.